نافذة على الغرب ٣٠



الله ليس كذلك

زيجريد هونكه





مؤسسة بافاريا

مجلة النور الكويتية



دار الشروق

الله
ليس كذلك

الطبعـــة الأولـــى
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م

الطبعـــة الثانيـــة
١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

الله ليس كذلك

زيجريد هونكه

ترجمة : د. غريب محمد غريب

دار الشروق - مؤسسة بافاريا - مجلة النور الكويتية

مـــؤمنة آل فـــرعـــون

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه وقد جاءكم بالبيانات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب *

ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس اللّه إن جاءنا ﴾ .

وتتفاعل النفوس ويصور القرآن ما قاله فرعون ليحول بين الصوت المخلص وقومه .. لكن الصوت المخلص يستمر فى دعوته والناس بين متجاوب ومعاند .

﴿ **يا قوم** إتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ....

يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى ألا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب *

وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعونى إلى النار * تدعوننى لأكفر باللّه وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى اللّه وأن المسرفين هم أصحاب النار* فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى اللّه إن اللّه بصير بالعباد .. ﴾ .

إن قصة مؤمن آل فرعون تتكرر دائما وأبدا فى كل زمان ومكان يرتفع فيه صوت الحق فى مواجهة الباطل .. والدكتورة زيجريد هونكه والدكتورة أنا مارى شمل من النوع الذى يكثر حولهما التساؤل للصدق البادى فى كتاباتهما والمعرفة الواسعة فى دفاعهما عن العرب والإسلام .. فى وقت دأبت فيه أجهزة الإعلام الغربى على النيل والتشويه .. فهل تأتى هذه العاطفة وهذا الدفاع من فراغ وهل تنتهى إلى فراغ ؟ ! أم أنهم فى

ملامح صحوة من نوع جديد شملت العلماء والمفكرين كما أشار إلى ذلك د . هوفمان فى محاضرة ألقاها فى جامعة بون بتاريخ ٦ / ١٢ / ١٩٩٤م عندما تكلم عن ظاهرة انتشار الإسلام فى وسط المثقفين الألمان ..

إنها أسئلة فى صدور من يقرأ لهذه الكاتبة القديرة مؤمنة آل فرعون ، وكذلك للدكتورة آنا مارى شمل اللتين طرقتا نفس القضايا التى طرقها مؤمن آل فرعون من قبل ، ولكن بلغة العصر الحديث .

عبد الحليم خفاجى

مؤسسة باڤاريا للنشر والإعلام

ميونيخ - ألمانيا

فيصل الزامل

مجلة النور الكويتية

الكويت

٧
الله .. ليس كذلك

لماذا تحتم الضرورة نشر هذا الكتاب ؟

« لا ريب فى أن الآراء المطلقة المتوارثة ، تجعل تفهم الشعوب بعضها بعضًا أمراً عسيراً ، كما تجعل احتقار بعضها البعض الاخر أمراً هيناً يسيراً » .

تلك الكلمة التى قالها الفرنسى رومان رولاند تصدق أشد ما تصدق على علاقة الغرب النصرانى بالعالم العربى ـ الإسلامى . وليس ثمة شعب يسىء الغرب فهمه كالعرب والعروبة ، وإن العلاقة بينهما لترزح منذ قرون تحت أثقال شتى ، وقد أسهمت « الآراء المسبقة » فى مسخها وتشويهها .. بل إن شعوبا أخرى ، نائية غريبة عنّا ، وشعوبا غيرها ذات أديان وضعية ليست من ديننا ، نقف منها موقفاًسمحاً مبسطاً ليس بالمعقد ، على العكس من موقفنا من الشعوب العربية المسلمة ، أو تلك التى تدين بالإسلام من غير العرب ..

ما السبب وراء ذلك ؟ !

لابد أن هناك سبباً معينا فى كون الأحكام الظالمة المتعسفة الموروثة عن القرون الوسطى لا تزال حتى يومنا هذا ، على خطئها وخطرها ، تسد الطريق على المعرفة الموضوعية للنواحى الفكرية والعقلية لذلك العالم ، ودينه ، وتاريخه ، وحضارته ، وفى كونها ، حتى يومنا هذا ، تصبغ المغالطات والتحريفات التاريخية فى مجال المعلومات العامة عن العرب ، صبغة يبدو أنها لا تنمحى ، أو تزول ..

لقد أصر الغرب إصراراً على دفن حقيقة العرب فى مقبرة الأحكام المتعسفة والافتراءات الجماعية دفناً ، وأهال عليها ما أهال طمساً منه لمعالمها ، على الرغم من محاولاتنا المعروفة ، كما يشهد بذلك كتابنا « شمس الله تسطع على الغرب » الذى صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٠ ، وكتابنا « قوافل عربية فى رحاب القيصر » والذى

صدر عام ١٩٧٦ ، حيث أخذنا على عاتقنا أن نخرج إلى النور أهم الإنجازات والتأثيرات العربية ذات الفضل على العلوم والفنون فى أوروبا ..

وعلى الرغم من أن محاولاتنا تلك قد شقت طريقها شقاً فى متاهات عدم المعرفة المتوارثة : فقد استقر فى أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين الازدراء الأحمق الظالم للعرب الذى يصمهم جهلاً وعدواناً بأنهم « رعاة الماعز والأغنام الأجلاف لابسو الخرق المهلهلة » أو أنهم « محدثوا الثراء الفاحش من شيوخ البترول المتكئون على أرصدتهم الضخمة التى تطفح بها بنوك سويسرا » ولا يزال صريخ القوم يحذرهم من سطوة الإسلام الحربى الذى يتهددهم منذ أن أوقف الفرنسى « شارل مارتل » زحف المسلمين ، متحيناً الفرصة للانقضاض !! ولا يزال القوم يروجون للخرافات السائدة هنا مثل « استعباد الإسلام للمرأة » .. !

وقل مثل ذلك فى « عدم التسامح والسماحة » فى الدين الإسلامى ، مما يطغى منذ قرون ليصبغ أو يشكل واقع الدعايات المغرضة المزيفة للواقع والحق ، والمنادية بالويلات والثبور ، وعظائم الأمور ، تؤجج من جديد أجهزة الإعلام الغربى المتباينة من أوارها المسعور ، سواء فى ذلك بالمحاضرات أو بالصحافة ووسائل البث المسيطرة ، والسياسة المتحيزة غير المنصفة ..

والحق أن محور الأمر ومداره أن ذلك التصوير المشوه الممسوخ المقصود المتوارث منذ القرون الوسطى لذلك العدو الكافر ، أى لأولئك المدعوين بأنصار محمد ، يراد له أن ينقلب إلى كره متأصل ، كحالة مَرَضية يرزح الغربى تحت كابوسها الخانق ..

وبينما يقتصر علم الغربى المبتور على كل حال بهؤلاء الذين يطلق عليهم « كفرة » على حفنة من الأنماط التقليدية المعتادة ، وبينما يكتفى الغربى بالجدل السفسطى اللاّج فى الخصومة والافتئات ، بدلاً من التماس المعلومات الموضوعية مبدّلاً كل حسنات العرب والمسلمين التى لاشك فى نسبتها إليهم ، إلى سلبيات وسيئاتٍ ، بينما كل ذلك كذلك ، يسطو الغرب سطواً على إنجازاتهم العلمية ، خاصة مبتكراتهم ومخترعاتهم ، فيدعيها لنفسه ، ناسباً إياها لغير أصحابها من الأوروبيين فإذا أعوزته الشخصية الأوروبية راح يلتمس شخصية وهمية يخترعها ، ويلفّق فى ذلك الأساطير .. ولا ينجو من هذا التجنى

على العرب والمسلمين بعض أعلام الغرب النابهين المشهورين فى عصرنا الحديث ، فقد راح بعضهم حتى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين يرمى العقلية العربية بأنها عقيمة كل العقم ، وأن العرب مقلدون فحسب لا يملكون موهبة الإبداع والخلق والابتكار ، وأن كنوز المعرفة القديمة التى وقعت فى أيديهم ، ونجت من الإبادة والحرق البربرى العربى لها ، تحولت إلى الغرب عن طريقهم ، فكان دورهم دور الببغاء فى تكرار بعض ما يسمع دون فقه لما يردد ، أو دور ساعى البريد الذى يقتصر دوره على أداء الرسائل إلى ذويها ومستحقيها ..

وإن موضوع الساعة الخطير ليحتم ضرورة فضح تلك الأحكام المتجنية والمتعسفة وإزالتها ، وشتى المعلومات الفجة الظالمة الزائفة ، التى تلصق منذ قرون بالإسلام ، وبمن حملوه ودانوا به وبلّغوه كما ينبغى ، وكذلك بتاريخ هذا الدين ..

وإن خطورة هذا الأمر لتتضح لمن يرى ويسمع ، كما تبرهن على ذلك موجات العداء الجديدة المغرضة فى ألمانيا ، والتى تستهدف الإسلام ، وتكيد له ، قاصدة بالدرجة الأولى وقف الزحف التركى أو موجات طالبى اللجوء فى ألمانيا من الأتراك المسلمين ، ومحاولتهم تأسيس « الحزب الإسلامى لألمانيا » (واختصار اسمه : آى . بى . دى) ، ثم موجة عدم التسامح الدينى والتعصب فى إيران ، حيث يقع الغربى فريسة معلومات مبتسرة غير موضوعية ونقص فى التفاصيل والملابسات فتكون العاقبة صيرورة الإسلام ونبى الإسلام والعرب والمسلمين ، دونما سبب ، مرمى الحملات الضارية المحمومة ، وإن لم يكن كل ما ينسب إلى الإسلام إسلاميا بالضرورة ..

المحمديـــــون

« ... ثم اشتق أنصار ذلك الدين الجديد من اسمه اسماً لهم هو : المحمديون » ... ترى أى قارىء لاحظ فى هذه الجملة مغالطة ما ؟ !

لقد نقلنا هذه الجملة من صحيفة يومية صدرت بتاريخ ٦ يناير ١٩٩٠ ، ولم تنشر الجريدة اليومية أى استنكار لأى قارىء يعترض على المغالطة الواضحة فى الجملة ؛ مما يريك أن رجل الشارع البسيط فى الغرب يطلق لفظ « المحمديين »على أولئك الذين يتبعون محمداً ويؤمنون به .

ويرجع السبب وراء إطلاق لفظ « المحمديين » على المسلمين إلى تعبير شائع نقله قبل سبعمائة عام الإنجليزى ويليام من مدينة سالسبرى عن الرأى العام الشائع فى عصره عن سكان إسبانيا إبان حكم المسلمين لها .

لقد عرف الغرب ، عن طريق ذلك الإنجليزى ، قصصاً بشعة تقشعر لها الأبدان ، عن أولئك الناس الذين استقروا خلف جبال البرانس فى قرطبة ، التى زعم أنها كانت مقر سلطان عبدة الشيطان ، ومحضّرى أرواح الموتى والسحرة وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود ، والذين حذقوا هذا الفن واستحوذ عليهم الشيطان ، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين ، وقد تربع على عرش قرطبة الصنم الذهبى « ماهومد » وأحيانا يطلق عليه « مخميد » ، وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية ، يذبحها أتباعه قرباناً وزلفى إليه ..

وأعجب أن تلك التسمية الملصقة بالمسلمين لا زالت تطلق عليهم فى الغرب ، على الرغم من مضى أكثر من ثلاثة عشر قرنا على تبشير النبى محمد صلّى الله عليه وسلم بالإسلام ودعوته إليه وعلى الرغم من أن المسلمين أنفسهم لا يسمون أنفسهم بالمحمديين

بل المسلمين ، مفردها مسلم للمذكر ، ومسلمة للمؤنث ، وهم على علم بمعنى كلمة إسلام ، حيث تدل على التسليم لله وحده ..

أما لفظة « المحمديين » التى شاعت فى اللغات الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، فإنها تدل على سطحية المعرفة لدى الغرب النصرانى بالمسلمين . لقد شاع قبل ذلك بقرون لفظ « السراسنة » [١] على المسلمين فى الغرب ، وإن كان أصل الكلمة علماً على قبيلة مـن قبائل المغرب العربى فـى العصور الوسطى ، ثم غلب علـى الاستعمـال لفظ « موسليمان » الذى اشتهر فيما بعد استعمال العامة باسم « موسيل منر » [٢] ، ثم دالت هذه التسمية التى ساعد على انتشارها تحورها فى ألسنة الفرس ، وأفسحت المجال للفظة « المحمديين » لتسود فى القرن التاسع على خطئها البيّن .

لقد انصرم اثنا عشر قرنا ونصف القرن على فتوحات أولئك العرب المسلمين ، وكانت الدولة الإسلامية انذاك إمبراطورية عالمية تفوق رقعتها الإمبراطورية الرومانية ، كما وطئوا القارة الأوروبية فى إسپانيا وصقلية حيث عاش فى كنفهم الإسپان والطليان قروناً ، بلغت فى صقلية قرنين ونصفاً ، وفى إسپانيا قروناً ثمانية من عام ٧١١ حتى ١٤٩٢ ... ثم إن القوم تعايشوا معاً قرابة ثلاثة قرون فى جو الحروب الصليبية ومملكة الفرنجـة الصليبيين فـى بيت المقدس ، حيث لمس العرب والأوروپيون رحاب الأمن ، ورهـق الصراع ، فـى حربهـم وسلمهـم كمـا تملى ظروف الحياة اليومية .. وعلى الرغم مـن كل هـذا (ولا نملك إلا العجب) فقد كانت معرفة الغرب سطحية إلى حد كبير بطبيعة العرب والمسلمين وحضـارتهم وتاريخهـم وطباعهم وخلقهم مما يخالف خلق الغرب وطبعه وطبيعته .. وإنه لمخجل لنا أن نرى هذا النقص المخزى يتسلل إلى كتابات أعلام الغرب ، حتى لنجده عند واحد من كبار مؤرخى الحضارة المعاصرين ، ألا وهو « جى . توينبى » [٣] ، حيث يبرهن على ذلك حكمه القاسى على العرب ، إذ وصفهم بأنهم « غير

---

١ – لم أعثر على ذكر لقبيلة عربية بهذا الاسم ، وقد وردت التسمية فى كافة اللغات الأوروبية ونذكر منها الإسبانية والفرنسية والإنجليزية ، ونقل زميلنا الدكتور نبيل عثمان فى ص ٩٤ قاموسه (الكلمات الألمانية ذات الأصول العربية) أن كلمة Sarazenen أصلها لفظة (شرقى) ـ المترجم .

٢ – ربما تشير المؤلفة إلى الأغنية الشعبية التى تستخدم التلاعب اللفظى القائم على الجناس التام بين الألمانية (مُسِل مان ـ Musel Mann) أى المسلم . والجدير بالذكر أن معظم المدن الأوروبية الشهيرة يلح حتى اليوم على استخدام كلمة « المحمديين » و« المحمدية » مرادفتين للمسلمين والإسلام ـ المترجم .

٣ – أرنولد جى . توينبى : دراسة فى التاريخ العلمى ـ ١٩٤٩ ص ٢٥ وما يليها ـ المترجم .

متحضرين » وأنهم « خلق غريب مستعبد من العالم الهللينى أو المتطفلين على الحضارة الهللينية الإغريقية » وأنهم « أولئك المحمديون البدائيون أقصى القول فيهم أنهم تقليد بربرى جاهل زائف لديانة السريان الغريبة عنهم » وقد جعلتهم تلك البدائية الجاهلة « لا يسعون إلى اعتناق النصرانية » لقصورهم . كما أكد وليام من سالسبرى أن هؤلاء العرب المسلمين يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين .

وعلى الرغم من روابط الجوار التى جمعت ين الغرب والعرب والتى امتدت قروناً بعد معاشرتهم والاختلاط بهم ، نجد العكس هو الصحيح ، اللهم إلا إذا غضضنا الطرف عن حالات استثنائية شذت عن هذا ..

السر فى عدم رغبة الغرب فى تفهم العرب أو فى عدم تفهمه لهم يكمن أولاً وقبل كل شىء فى عداء الغرب لهم ، فى هذا الخضم من الأحكام المتعسفة المسبقة المزيفة التى جنت على تفهم الغرب للعرب ، جناية لا تجد لها مثيلاً إزاء أى شعب آخر على وجه الأرض .

ولا شك أن وراء هذا سبباً معيناً ..

الإغراق المنحاز مدحاً أو قدحاً :

إن العداء وحده ـ حتى لو كان ذلك بسبب العقيدة ـ ليس كافيا لتبرير فرض العراقيل والحواجز أو الحصار أمام المعلومات الأفضل ، والبحث الموضوعى الدقيق ، وتحريف الحقائق التاريخية وتزييفها ومسها ، وازدراء الخصم وسبه سباً قبيحاً ، وكراهية المخالفين لنا فى الدين أو العقيدة .

إن العداء ـ كما تشهد سير المحاربين الجرمان القدامى ـ لا يمنع أن يشهد الخصم لعدوه بالاحترام والإكبار ، إذا توافرت الموضوعية والمروءة ، سواء كان العدو حشود المجر أو السلوفاك أو الصراصين أو الأوروبيين الشرقيين أو جحافل الهون الذين دهموا الممالك والبلدان ، فالمرء لا يفرق بين أحد منهم بمعنى أن النظرة الموضوعية لا ترى فى كل منهم سوى العدو المهاجم الذى يريد أن يغزو الحمى ، كلهم إذاً عدو له .. هكذا كان فرسان الجرمان قديماً ينظرون إلى أعدائهم .. وهكذا يقع القارىء فى شعر البطولة الملحمى كما نعرف فى أشعار « رودليب » الملحمية ، على الصفات التى يتحلى بها الفارس الشاعر ، فى نزاله للخصم ، تظللهما روح الفروسية مكْبِراً فيه البطولة « يحبوه

بشمائله الطيبة مقدراً شجاعته ، معترفا بفضله » ، هذا النبل المعهود فى شعر الفرسان الأبطال سرعان ما يتغير إذا وصف العرب والمسلمين مؤرخ أو شاعر أو رجل دين مُنَظِّر أو رحالة أو مراسل » من الغرب ، فهم لدى الغرب « الكفرة الفجرة » الذين لا يدينون بالمسيح أو الله ، لأنهم لم يعرفوه بعد ، على أنه فى الإمكان تنصيرهم . .

نداء يهيب بقتال أعداء الرب

بدأ تحول حاسم في مجرى التاريخ بدعوة البابا أوربان الثانى فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ م فى كليرمونت [١] بفرنسا : كافة فرسان الغرب إلى حمل الصليب والزحف لـ « تحرير » « قبر عيسى المقدس » ببيت المقدس زاعما" أنه قد تخرّب وتهدّم.. » وقد كشفت الأحداث، كما سيتضح فيما بعد، أن هذه كانت مجرد دعاية، وأن ذلك الشعار المرفوع لتحرير قبر يسوع، محض خدعة كنسية، تخفى من ورائها أهداف الكنيسة السياسية، التى حسبت حسابها بغاية الدقة، وقد نجحت تلك الدعاية البابوية فى تأجيج حماسة الفرسان الذين كاد صبرهم ينفد، حيث كانوا عاطلين بلا عمل ، كما ألهبت تلك الدعاية حميّة الوعاظ الجوالين، الذين ما لبثوا أن تحولوا إلى حركة جماهيرية شعبية، تملكها ما يشبه الوجد الصوفى فى نشوتها والتهابها شوقاً لتحرير قبر المسيح !! .

كان البابا أوربان الثانى هذا، يمنى نفسه، قبل كل شىء، بتحقيق خطة البابا الأسبق جريجورى السابع، فى رأب صدع الكنيسة، التى كانت قد انشقت على نفسها، بحيث تضم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كل طوائف النصارى، وأن يعيد الكنيسة الشرقية العاصية أو المنشقة إلى حظيرة الاتحاد الكنسى من جديد ، وقد طمع فى نجاح مسعاه، إذا وُفِّق فى القيام بصفقة معينة.. ولقد شاءت المقادير أن تتيح له الفرصة المنشودة لتحقيق أمنيته ، حينما طلب إليه القيصر البيزنطى ألكسيوس أن يمده بجيش من الفرسان الصليبيين والمرتزقة من نصارى الغرب لينقذوه من براثن الجحافل التركية السلجوقية الذين وطئوا آسيا الصغرى واكتسحوا إمبراطوريته البيزنطية؛ على أن الحق الذى ينبغى أن يذكر أن خطر الترك كان قد زال أو كان على وشك الزوال والانقشاع ..

---

١ – مدينة تقع على بعد ٢٨٨ جنوب باريس- المترجم .

والحق أيضاً أن الباسليق[1] كان يرى أن يشن حرباً انتقامية ضد الترك دون الاستعانة بالقوى الغربية الكاثوليكية. ثم أنه لم تكن هناك أى حاجة للتحرير المزعوم لقبرالمسيح، ذلك أن تلك الأبنية المقدسة، سواء كنيسة القيامة التى كانت قد تهدمت قبل أربعة أجيال، أو مقبرة المسيح التى ألحّ البابا أوربان الثانى على اتخاذها شعاراً لتكمل بها خطته (لشن الحروب الصليبية) .. كان قد بدأ سابقا ترميمها وإعادة بنائها، ولم يكن ثمة خطر يتهددها. على أن البابا كانت له مآرب أخرى؛ فهو بوصفه أعلى سلطة كنسية فى العالم النصرانى، والمتربع على كرسيه المقدس « رسولاً للرب » ما كان يليق به أن يخيب ظن الفرسان ، الذين كانو يضطرمون شوقاً لتحرير مقدسات النصرانية، والغاية تبرر الوسيلة، وما كان له أن يخلف وعده لهم فيقعدوا مُخَلّفين فى بيوتهم وديارهم وبلادهم التى ضاقت عليهم، والتى تحرم النصرانية فيها القتال عليهم ، وما كان له أن يتردد فى اغتنام الفرصة للخروج من الضائقة الاقتصادية، واختبار صدقهم فى القتال وبلائهم فيه خارج ديارهم فى الأقطار النائية، سواء كان ذلك للرغبة الجامحة فى القتال باسم الدين، أو الرغبة المحضة فى النزال، أو الظمأ للمغامرة، أو الطمع فى الغنائم. ومهما كان الأمر، فقد استغل (قداسته) الفرصة، ودعا إلى أن يحمل النصارى السلاح، ويخرجوا قاصدين بيت المقدس، يؤدون فريضة الحج « التقديس » ويطهرون المقدسات ويحرروها، وأهاب بالفرسان واستثار نخوتهم وخاطب روح الفروسية فيهم ليحملوا السلاح ، ويحرروا إخوانهم مسيحيى المشرق فى آسيا الصغرى الذين يعانون الذل والهوان على أيدى أعداء الرب ، وما كان هدفه من وراء ذلك سوى السعى لتحقيق الغاية العظمى المنشودة، وهى زيادة السلطةالكنسية ونفوذها ، بواسطة الاتحاد مع الكنيسة الشرقية وكسبها إلى صف روما .

آه من هذا البابا !

لقد كان داهية أتقن دوره كل الإتقان، فقد دعا إلى مؤتمره الكنسى الذى أبرز أمامه فرساناً روعى اختيارهم بدقة، وخطط للمؤتمر بذكاء، وافتتحه كل مرة بعرض تمثيلى مؤثر فى مناقشات استمرت أياماً طويلة ، كان يختتمها دائماً بندائه محرضاً على القتال ، ناطقاً باسم المسيح ، ولا يلبث بعد ذلك الأسقف أديمار ، الذى استقر

١ – رئيس الرهبان فى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ـ المترجم .

الرأى على أن يقود أول حملة صليبية أن يضرب المثل المحتذى للفرسان ، فيتقدم الصفوف ، ويركع أمام البابا ، ملتمساً بركاته ، فيتلقى منه إشارة الصليب..

ولقد كان ذلك البابا يعرف كيف ينتقى أشد الكلمات فى تلك اللحظة تأثيراً ، فيضرب على الوتر الحساس فى نفوس الفرسان ، ويثير حميتهم وغضبهم ، فيخلع عليهم صفات القداسة ويرفعهم إلى مصاف أبناء الرب الذين يحاربون فى سبيله ، ويخلع على الأعداء أحط الصفات ، جاعلاً قتلهم فرضاً مقدساً ثم يؤكد نداءه بقوله : «ولست أنا الذى ينذركم وإنما الرب نفسه يطلب إليكم ويحذركم ، بصفتكم حملة لواء المسيح والمبشرين الداعين إليه ، أن تطهروا الأرض المقدسة التى يعيش فيها إخوانكم المسيحيون ، من أولئك الرعاع » .

بهذه الكلمات التى تلفظ بها ذلك البابا فى إلحاح وتأكيد .

لا يمكن إطلاقاً إصلاح ما أفسد البابا أبداً ... بهذه المناقضة المغرقة فى التطرف ، والتى يفرض بها الرئيس الروحى الأعلى للمسيحية بقوة تفويضه الإلهى وسلطته المقدسه ، على فرسان الغرب ، ألا يكفوا عن حرب العالم الإسلامى أبداً ، إنما يعهد إليهم بسلاح لاتلتئم جراحه الغائرة (بالإزميل) الذى به شوهوا وجه العرب والمسلمين تشويهاً ، على مدى ألف عام ، وبطريقة ظالمة ، كما سنرى فى الصفحات التالية .

الفصل الأول

إشعال نار الكراهية والبغضاء

إن قولة القديس أغسطين التى فصل فيها فصلاً مفرطاً بين العالم الروحى وبين العالم الدنيوى ، بين ملكوت الله وبين عالم الشيطان المعادى له ، والتى ترسخت فى دير كلونيه ، وتجسدت فى نظرية عرض الأضداد ، ومقارنة بعضها ببعض ، لإبراز التناقضات وأوجه الاختلاف ، ثم ترجمة الأفكار التى ألح عليها أغسطين إلى صور قاتمة مغرقة فى انحيازها المفرط سواء فى كتابات المؤرخين من رجال الدين والمفكرين أو قصائد الشعراء ، كل ذلك صار الآن ، أى فى بدايات الحروب الصليبية ، يلقى أعظم القبول ، وأرفع درجات الاستحسان والتأييد من أعلى السلطات الكنسية ، أجل ، بل إن القوم أفرطوا ، وركب العامة والوعاظَ المتجولين الكرهُ الأعمى المجنونُ ، الذى انصب على أعداء الرب ، أعداء عيسى ، الذين ليسوا سوى «ديدان حقيرة » . !

ولقد كان الشعار الرئيسى ، الذى ألح فى رفعه وتبنيه دعاة الحروب الصليبية للإسراع فى الوصول إلى هدفهم إنما هو « تحرير بيت المقدس » أو « قبر المسيح المقدس » .. أما هدف البابا أوربان الثانى الرئيسى ، وهو رأب صدع الكنيسة المنشقة ، وتوحيد الكنائس تحت زعامته ؛ فإن ذلك لم يحتل أى شعار ، كذلك خرست ألسنة دعاة الحروب الصليبية عن ذكر « تحرير بقية النصارى » أى الإخوة أهالى آسيا الصغرى من نير الأعداء السلاجقة الأتراك الذين وطئوا آسيا الصغرى أو بيزنطة ، الأمر الذى دفع كبير الكنيسة الشرقية الباسليق (الباسيليوس) المذكور أن يكتب إلى البابا أوربان الثانى طالباً أن يمده ، فى أول الأمر ، بجيش من عنده من الفرسان لصد زحف الأتراك ..

وواكب ذلك الشعار إشاعات أخرى روج لها دعاة الحروب الصليبية لإبقاء النار

المتقدة ، وضمان استمرار غليان مشاعر المبايعين لبذل النفس والنفيس والخروج مع الصليبيين فى حملاتهم ، فطارت تلك الإشاعات المختلقة تؤكد استباحة « برابرة المسلمين » للقبر المقدس ومقدسات النصارى وانتهاكها والتمثيل والتنكيل بكل من يقع فى أيديهم من الحجاج النصارى (المُقدِّسين) ، فى الأرض المقدسة ، فى وحشية بربرية ، ولقد زينوا تلك الإشاعات ، ليؤججوا تلك النار ويضمنوا امتثال الصليبيين لهم ... وصبّهم سعار حقدهم وانتقامهم على أعدائهم ، فيحرروا المقدسات من أسرهم ..!

ولقد أثمرت تلك الدعايات ثمار شؤم .. وليس عجباً بعد كل هذا أن يقع الصليبيون فى شراك الأكاذيب والشائعات التى روجت لها الكنيسة للانتقام ، وإنقاذ قبر المسيح المقدس من أيدى الطغاة ، فاتقد هؤلاء غضباً وحماسة ، وألحت عليهم شهوة الانتقام دون أن يدركوا الحق ، فالحق الذى لا مراء فيه أن الاستثناء الوحيد فى قضية انتهاك المقدسات ، كان قد حدث قبل تسعين عاماً على يد الخليفة المعتوه ، المريض عقلياً الحاكم الثانى [1] من تخريب كنيسة القيامة ؛ على أن أمه نفسها قامت على الفور بمباشرة ترميمها وإعادة بنائها ولا ننسى هنا أن نشير إلى تسامح وسماحة الخليفة هارون الرشيد [2] الذى كان قد عهد شخصياً إلى القيصر الألمانى كارل ببسط حمايته الشرفية للكنيسة ذاتها ، وسلم بطريركها الأكبر مفاتيح البقاع المقدسة ، مما أسهم فى خلق جوٍّ تسوده السماحة .

ولنا أن نقرأ الرسالة التى تلقاها ، بعد مضى مائة عام على تلك الحادثة التاريخية ، الأسقف أجتاتيوس فى بيزنطة من أخيه الروحى البطريرك تيودوسيوس من بيت المقدس : « إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام ، وهم لا يحاربون النصرانية بل على العكس من ذلك يحمونها ، ويذودون عنها ، ويوقرون قساوستنا ورهباننا ويجلون قديسينا » . ولا يكاد المرء يصدق هذا الذى يسمع ، إذ كان ذلك إبان الأفق المعتم الذى يتربص فيه الموت بالمسلمين فى كل مكان ، كانت الساحة حبلى بالحروب الصليبية ، وقد بلغ العداءُ لهم أشده ، فى ذلك الجو المشحون بغضاً ...

والحق أيضاً أن المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب كالأتراك وغيرهم قد

---

١ – تقصد المؤلفة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ ـ ١٠٢١) ـ المترجم .

٢ – تولى هارون الرشيد الخلافة من ٧٨٦ إلى ٨٠٩ ـ المترجم .

التزموا منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بضمان سلامة النصارى الذين يسعون إلى حج الأرض المقدسة ، لا يصدونهم عنها أبداً ، إلا إذا استثنينا بعض الوقائع المنفردة ، التى أملتها ظروف وملابسات معينة .

وعلى الرغم من كل ذلك ، لم يعرف البابا لحقده ومكره حداً ، وشهدت مدينة كليرمونت الفرنسية دعاياته البابوية الطافحة زيفاً وكيداً ، وردد زبانيته كيف سعى « أعداء الرب » فى خراب كنائس النصارى فى آسيا الصغرى وكنيسة القيامة بالأرض المقدسة وهدموها عمداً ، وراح يستصرخ همم الفرسان الصليبيين ، جنود الرب المختارين ، لنصرة النصارى المستضعفين ، حاشداً فى ذلك كل ما فى طاقة الوعاظ المتجولين ، يثيرون الحمية ، ويذكون نار العصبية ، فى صور قاتمة كئيبة ، وخطب رهيبة ، تثير النفوس ، وتلهب الأخيلة ، وتطالب المخلصين الفرسان بالقصاص من المجرمين العرب ، فإنها مشيئة الرب أن يؤخذوا بجرمهم ، والذى أُلصق بهم بغياً وعدواناً ، وكذباً وبهتاناً ، وتحركت تلك الدعاية المسمومة ، تواكب الحملات الصليبية المحتومة ، متجهة صوب الأرض المقدسة ، وهيهات أن يوقف زحفها المسعور شئ أبداً ! إن ذلك الحقد الأعمى فى مقته « لأعداء الرب » والخطب الرنانة التى توعدتهم بالعقاب والثبور ، وعظائم الأمور ، لم تخب ناره ، بل ازداد أواره ، على الرغم مما استهدف الحملات الصليبية وواكبها ، فى مسيرتها شهوراً طويلة فى أوروبا وآسيا الصغرى من دسائس وفتن داخلية ، بين أفرادها وفرقها ورغم شظف عيشها ، ومعاناتها وتكبدها خسائر فى المتاع والأرواح ، حيث فتك بها الصراع الداخلى فتكاً ذريعاً ، وقد تجلّى ذلك الحقد الأعمى فى انتقام الصليبيين عقب وصولهم إلى هدفهم المنشود : بيت المقدس ، فقد طغت حماستهم ، فجرفت أمامها كل السدود ، وانطلقوا سيلاً بشعاً بربرياً ، يأتى على الأخضر واليابس ، وقد أجج من كل ذلك صيامهم ثلاثين يوماً حماسة متعصبة ، و« نذراً » للرب وتقرباً ، ولقى هذا كله رد فعل لدى سفاّكى الدماء السفاحين من فرسان « الفرنجة » من فرنسيين ونورمان وجموعهم التى انحدرت فى طرقات بيت المقدس تحصد الأرواح حصداً ، لا تقع على إنسان إلا قتلته ، أو ذبحته فجندلته ، رجالاً ونساء ، وشيوخاً وولداناً ، وتذكر مصادرنا الغربية ذاتها أن ذلك الحصاد الوحشى المريع بلغ عشرة آلاف ذبيحاً ..

ويصف المؤرخ الأوروبي ميشائيل درسيرر كيف كان البطريرك نفسه يعدو فى زقاق بيت المقدس ، وسيفه يقطر دماً ، حاصداً به كل من وجده فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح ، فأخذ فى غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها مردداً كلمات المزمور التالى :

« يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار ، ويغسلون أقدامهم بدمهم فيقول الناس حقا إن للصديق مكافأة وإن فى الأرض إلها يقضى » [1] ثم أخذ فى أداء القداس قائلاً ؛ إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب [2] .

أما الميدان الذى يتحلق قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، الذى لجأ إليه معظم الأهالى المسلمين الهاربين هلعاً و احتماءً به ، فقد تحول تحت زحف الفرنجة المدمر المجنون إلى حمام دماء خاض فيه مهاجمو النصارى حتى الكعبين مواصلين الإجهاز على المسلمين .

لقد كانت الحملة الصليبية الأولى ، التى أعلنها ذلك البابا أوربان الثانى فى اليوم السابع والعشرين من نوفمبر لسنة ألف وخمس وتسعين (١٠٩٥) بمثابة المقدمة الموسيقية الحزينة لواحدة من كبريات مآسى العبث فى تاريخ الإنسانية ، لقد حفر ذلك اليوم حفراً يتأبى على المحو أبداً فى ذاكرة التاريخ ، ولقد تبين دهاء البابا وتخطيطه الخبيث الذى يملأ صفحات وصفحات ، قبل أن يبدأ تنفيذها فعلاً ، ولئن كانت الحملة الصليبية الأولى قد انتهت ، لوقت مؤقت معلوم ، بالغلبة الساحقة لمقاتلى النصارى دفاعاً عن المسيح ! ، فإنها كانت فى الوقت نفسه هزيمة أخلاقية مهولة ، سجلها تاريخ الإنسانية بحروف من الخزى والاستنكار ..

ولقد أيقظت تلك الحملة البربرية ما أيقظت فى نفوس المسلمين فى شتى بقاع العالم الإسلامى ، وكان لها صداها ، الذى لا يزال يحتل ركناً فى إدراك العربى ووعيه ، ولن تزال تلك الحملة الصليبية الأولى بقعة عار وخزى ، لاصقة بالغرب مشيرة إليه بإصبع الاتهام ..

ولقد أفاض الشعراء العرب ، مثل الشاعر مظفر الله وردى ، فى وصف تلك الكارثة

---

١ – المزمور ٥٨ : ١٠ ـ ١١ ـ المترجم .

٢ – تاريخ الحروب الصليبية ـ جـ ١ ص ٢٤ : أدولف فاس ـ المترجم .

التى أحلها أولئك الصليبيون بشعبه ، ورثى القتلى ، واستصرخ الأنفس الغضبى ، ودعا إلى الجهاد ، وقد فعل شعره فعله ، فاحتشد المسلمون للذود عن ديارهم ودينهم ..

ولقد راح الشاعر يصف امتزاج دماء القتلى بدموع الثكلى ، وعجز المسلمين أمام المعتدى الغاصب ، ولقد أحال لمعان السيوف الظلام إلى نهار ، وأُعْمِلَ السيفُ البتار ، وخرت النساء غارقات فى بحار الدماء ، لا يملكن الدفاع عن أنفسهن ، أو اتقاء الهجمات سوى بأيديهن العاريات يسترن بها عوراتهن ، وقد تغطت شفار السيوف وأسنة الرماح بدماء الضحايا المسلمين ، كان ذلك هو الهول الذى جعل الولدان شيبا ، وأما من نجا بروحه ، فقد ألجمه الخوف ، وملك الغيظ مشاعره ، ولم يبق أمامه إلا العويل ، لقد صارت رقاب المسلمين ، وجماجمهم أغمادا للسيوف .

الصدمة النفسية العربية للغرب :

إن ما قُصد إليه من تحقير المسلمين سواء بنداء البابا أوربان الثانى أو وعاظ الحروب الصليبية بأنهم « سفلة أوغاد » وأنهم « أعداء الله » وأعداء المسيح ـ علما بأن المسلمين يوقرونه نبيا من أنبيائهم ـ وسبهم بأنهم « مستبيحو قبر المسيح » وتشويه الإسلام دينهم ، والله إلاههم ، ومحمدا نبيهم ، إنما أثار فى الغرب ما هو أبعد خطرا من الإزدراء والمقت المميت .. لقد أضرم كل ذلك الرغبة والإستعداد الملتهبين لعقابهم على ما زعم البابا أنهم قد اقترفوه ، مما جعل وعى الفرسان واعتدادهم بأنفسهم يتصاعد شامخا بصورة لم تكن قبل معهودة فيهم ، فتصوروا حقا أنهم أفضل وأرقى من « أولئك السفلة » أضعافا مضاعفة ، بل لقد باتوا يعتقدون أنهم بحق « صفوة خلق الله » ، وفى الوقت ذاته رأوا فى العرب شرذمة لا يجدر بها سوى الإحتقار والإزدراء فى الدرك الأسفل .. هكذا إنطلقت كلمات البابا العارية عن كل صواب واعتدال ، المغرقة فى الإستهزاء تستنفر الفرسان للقتال ، فقال : « أى خزى يجللنا وأى عار ، لو أن هذا الجنس من الكفار ، الذى لا يليق به إلا كل إحتقار ، والذى سقط فى هاوية التعرى عن كرامة الإنسان جاعلا نفسه عبدا للشيطان ، قد قدر له الإنتصار ، على شعب الله المختار ... » ، ذلك الخزى الذى خشيه البابا هو بعينه ما تبعه قرنان ونصف القرن من الصراع الذى تمخضت عنه الحملات الصليبية المتوالية !! فقد كانت الحملات الصليبية ما عدا اثنتين منها هزيمة للجيوش الصليبية ، حيث انتصر الصليبيون فى الحملة الأولى

انتصارا دمويا ، أتاح لهم تأسيس مملكة الفرنجة فى بيت المقدس ، وقد ظنوا أنها لن تبيد ، والحملة الصليبية السلمية الخامسة التى قادها صديق العرب القيصر فريدريك الثانى ، والتى تمت فى ظل جو تسوده روح الصداقة ، دون إراقة دماء ...

أجل .. لقد منيت تلك الحملات الصليبية بشر هزيمة للصليبيين المعتدين ، بعد ما أساءت استغلال الحماس الدينى للجماهير فى تحقيق خططها التوسعية ، وبسط نفوذها وأطماعها السياسية .

وفى النهاية حلت الهزيمة الكاملة بالصليبيين ، واستقرت الصدمة فى كيان الغرب ، وراح البعض يتساءل : أليس قضاء الله وحكمه الذى أنزل العقاب بالنصارى ؟ .. ألم يكتب الله النصر لأتباع محمد على الدين النصرانى ؟.. ألم يكن ذلك هو الخزى والهوان الذى حاق بهم والذى كان البابا أخشى ما يخشاه ، واصفا إياه بأنه العار الذى لا عار بعده ؟ .. ألم يكتب الله « إنتقاما منه وغضبا » النصر لمحمد على المسيح ؟.. ألم يحكم بأن أولئك المحتقرين « عبدة الشيطان » « الكفرة الفجرة » بأنهم على حق ؟ .. ويمضى ريكولدوس دى مونت كروكس مسائلا : ألم تهزم بركات محمد وهديه بلا مراء هدى المسيح ؟.. ويتمادى شاعر الفروسية " آوستورك " فى شعره الإستنكارى متسائلا : أما آن لنا أن نؤمن بمحمد بعد ؟!.

أجل تلك كانت العاقبة الوخيمة التى عصفت بالعالم على مدى قرون باهظة تكاليفها من بشر احتشدوا لها احتشادا ، وأسى فتت أكبادا ، وأفنى أجنادا وعبادا ، وصراعا طحن شعوبا وبلادا ؛ ولئن كان ذلك قد تم بتنسيق منظم مؤلبا شعوبا بعضها على بعض ، مؤججا الصراع بينها فإن من أضرموه : الكنيسة والكرسى البابوى قد دفعوا ثمن أعلى سلطة تمتعوا بها ؛ إذ سقطوا من حالق سقوطا عموديا ، فهووا إلى سفح عميق عصف بسمعتهم وكيانهم وزلزل الثقة بهم .. تلك الكارثة التى زج فيها أولو الأمر والقول والفصل فى الكنيسة ملايين من المؤمنين النصارى ، خلقت شكا مستفحلا تغلغل الغرب ، وأسى بشريا لا يمكن تقدير مداه . لقد عاد خمس الفرسان فقط إلى ديارهم ! ، الخمس فقط من مجموع فرسان الحملات الصليبية الست الكبيرة والحملات الأخرى الصغيرة التى لاتحصى ، والتى أبيدت فيها آلاف مؤلفة من المشاة البسطاء ، لا يكاد تعداد يسرف فى

إحصائهم عدا ، فضلا عن الصغار والمراهقين بين ثلاثين وخمسين ألف حصدوا حصدا ...

ومن ذا الذى يستطيع أن يقدر مبلغ الخزى والعار اللذين أحاطا بالصليبيين بعد ما لمسوا حقيقة خصومهم ، الذين كانوا يتصورونهم (كما وصفوا لهم) أخساء محتقرين يتخبطهم مس الشياطين ؟ !

لقد تفتحت أعينهم أول ما تفتحت فى الشرق ، فوجدوا أن أولئك الذين قد وصفوا لهم بأنهم أوغاد سفلة ، إنما هم بشر مثلهم ، بل إنهم أرقى منهم وأرجح فكرا ، ليس فى فن الحروب فحسب ، وليس فى تفوقهم فى تسلحهم واتخاذهم الصلب أو الفولاذ الدمشقى فى صناعة أسلحتهم ودروعهم وتنظيمهم صفوفهم مشاة وفرسانا ، وفى بنائهم حصونهم وقلاعهم وآلاتهم المعروفة فى حصار العدو ، وطول باعهم فى العناية الطبية فى الميدان ، وأنما قبل كل شىء إستماتتهم فى الدفاع عن الحمى دفاعا جادا ، والتزامهم الخلقى ضبطا وربطا أفضل مما لديهم ، فقد كان الصليبيون على العكس من ذلك .. حشودا نفرت فرادى لا تكاد تعرف روح القتال الجماعى ، ولا الإلتزام بأداء الواجب .. أجل لقد رمى الغرب إلى المعركة بفرسانه المغرورين وقد زودهم بما بثه ونفثه فى وجدانهم وواعيتهم المتكبرة بأنهم المصطفون الذين عهد الله إليهم أن يقتصوا من « الكفرة الفجرة » لما إقترفوه من إثم عظيم .

ولقد ساروا وفى آذانهم الأمر الذى أصدره إليهم كبير وعاظ الحروب الصليبية « برنارد دى كلير فوكس » : « **إما التنصير وإما الإبادة** » . ولكنهم أنفسهم حاقت بهم الهزيمة ، فعادوا إلى ديارهم يجرون أذيال الخزى والعار ، فالله قد حكم لمحمد على المسيح ونصره عليه ، وبالتالى حكم الله عليهم ، فأصبح بذلك لهم « عدوا » .

لقد كانت صدمة نفسية تغلغلت الفرسان وزعزعتهم ، إذ هوى الشعور بالثقة والإعتداد بالنفس فى هوة سحيقة جريحا ، والكبرياء التى نفخت فى أوداجها دعاية مسمومة لا خلاق لها ، تقطر مقتا ، وتشعل جذوتها أعلى سلطة ليس لديها شعور بالمسئولية ، كل ذلك نما نموا متراكبا مكونا عقدة نفسية غائرة لا زالت تحكم موقف العالم النصرانى فى الغرب ونظرته للعرب والنفسية العربية منذ ذلك الحين حتى اليوم . .

تسد تلك الصدمة المزمنة الطريق أمام كل معرفة موضوعية تتفق مع الواقع الحقيقى ، دون بذل أى محاولة أو أى إستعداد للنظر إلى الواقع الفعلى بلا تحيز لحكم مسبق ، فضلا عن تفهم ذلك الواقع . وهكذا حل محل التقصى الموضوعى للمعلومات النيل من العرب هجوما وتجريحا ، وإلصاق أحكام ظالمة مسبقة بهم ، رسخت على مر القرون وأصبحت لها صلاحية البدهيات المسلم بها .

إن تلك الأحكام المستقرة المستهلكة لا زالت تتغذى على عدد لا حصر له من المغالطات وليدة سوء الفهم ، ومن الصورة الدينية الظالمة للخصم ، ومن المعلومات الخاطئة المنحازة ، ومن الإساءة المشوهة عمدا وقصدا ومن النقص فى المعرفة نقصا مبينا ، مثلا فى :

* ميدان العقيدة والتصور الدينى ، وتصو المسلمين للذات الإلهية .

* وفى تصور الغرب لمؤسس تلك العقيدة والخلط بينه وبين الله.

* وفى معرفتهم بالمؤمنين من المسلمين ونحو ذلك ...

* وفى التاريخ الإسلامى للعرب وغيرهم من الشعوب التى اعتنقت الإسلام .

* وفى التعايش مع الناس المختلفين فى الدين .

* وفى وضع المرأة فى التاريخ والحياة الزوجية والأسرة والعمل .

* وفى الحضارة والعلوم ؛ والفنون والتقنية .

* وفى السياسة المعاصرة .

الفصل الثانى

الفروسية الألمانية والفروسية العربية
تخزيان عدم التسامح النصرانى

والحق أن ثمة إستثناءات تخللت الصراع المسلح الذى حطم قرونا عديدة بين الغرب والشرق ، أو بين النصرانية والإسلام ، حيث إلتقى الفريقان ، كل على دينه ، لقاء غير الأعداء . ويحفل التاريخ فى هذا الصدد بصنيع بعض الشخصيات الألمانية التى عانت وكابدت كى لا تنساق وراء الحماس المسعور الذى أججه دعاة الحروب الصليبية من البابوات ، فقد قابلت تلك الشخصيات نذر المبعوث البابوى المطالبة بحمل الصليب بالإرتياب بل وبالرفض .

وحينما إستقر عزم أولئك الألمان على شن الحرب الهجومية ، فإن ذلك لم يصدر عن دوافع أو غايات دينية ، وإنما صدروا فى ذلك فى أغلب الأحوال عن مطامع سياسية عليا للإمبراطورية الألمانية ، بعد أن خلعوا عليها رداء الكنيسة كأنها هى أهداف كنسية ، ذرا للرماد فى العيون ، ناظرين فى ذلك إلى علاقاتهم التى لم تسلم بحال من الصراع بين الكرسى البابوى والأباطرة الألمان من سلالة شتاوفر .

نتج عن ذلك أن الحروب الصليبية ظلت بالدرجة الأولى قضية غرب وجنوب أوروبا ... وهكذا وباستمرار دأب البابوات آنذاك على التوسل بالحروب الصليبية سلاحا يشهرونه لإضعاف الأباطرة أو القياصرة وتحطيم سلطانهم ، مؤكدين حقهم المقدس فى حكم الممالك الألمانية مستثمرين الضرائب التى جبيت لشن الحروب الصليبية فى صراعهم الشخصى ضد الأباطرة الألمان من سلالة شتاوفر العظام ، بل إنهم دعوا من فوق منابر الكنيسة إلى شن حرب صليبية على الأباطرة الألمان والإمبراطورية الألمانية .

لا ريب إذن فى أن القياصرة أو الأباطرة الألمان الذين قرروا الإسهام فى الحروب الصليبية ، إنما فعلوا ذلك عن إدراك ووعى تام مضاد كلية للإرادة البابوية ، لكى ينتزعوا من يد البابا السلاح السياسى الذى شهره فى وجوههم فيتولوا هم أنفسهم زمام الأمر دونه .

لقد توشجت أواصر الصداقة وعراها بين ثلاثة من أولئك القياصرة الألمان وبين بعض السلاطين المسلمين ، وذلك فى مأمن من رياح التعصب الدينى الذى دأب مؤججوه على إضرامه منذ ثلاثة أجيال خلت من قبل ... ولا بد لنا هنا أن نتساءل عن السر فى بخل التاريخ بأنباء أولئك العظام وضنه بالإفاضة فى ذكر الظروف غير المعتادة والملابسات التى عايشوها ، اللهم إذا إستثنينا منهم القيصر فريدريك الثانى ؟ ! ..

ومن ذا الذى يدرى حقيقة الوقائع العجيبة ، والأحداث الغريبة ، التى جرت من قبل بين جده القيصر فريدريك الأول وبين السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبى ، الذى يعرفه الغرب بإسم (سلادين) ، فلقد سادت علاقات العاهلين الدبلوماسية روح الوئام والسلام ، إبان زمان عصفت به حمى الحروب الصليبية والخصام ، حتى إن التاريخ ليسجل عام ١١٧٣ ميلادية وصول وفد السلطان صلاح الدين إلى بلاط القيصر فى آخن بألمانيا ، قادما من القاهرة حاملا رسالته التى يطلب فيها يد إبنة القيصر لإبنه ، على أن يتم تتويج إبن صلاح الدين هذا ملكا على النصارى !

فيا لذلك من عرض ! ويا له من حلم للربط بين الشرق والغرب ! لا غرو إذن أن يفكر القيصر فى الأمر مليا ، فاستبقى الوفد العربى فى بلاطه ضيوفانصف عام ، وإبان ذلك هيأ لهم زيارة عديد من مدن مملكته ، وبعد عام أرسل مبعوثه القيم على شئون الأديرة والكنائس « بوركهاردفون ستراسبرج » بهدية إلى السلطان بالقاهرة ، كتلطف فى الإعتذار .

على أن علاقات المودة بين العاهلين الكبيرين لم تتأثر بذلك مطلقا ، بالرغم من تواتر الأنباء التى هزت كيان الغرب عام ١١٧٨ م ، بالهزيمة النكراء للفرنجة فى حطين

ـ على مرتفعات الجولان ـ وفقدان الصليب المقدس واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس ، الأمر الذى أثار فى الغرب عاصفة من الفزع والإستنكار والهلع .

وانطلاقا مـن صحة المقولة التى تزعم بحق أن الصورة المجسدة تؤلب فى الوجدان ما يعجز عنه اللسان ، عمد دعاة الحروب الصليبية إلى النفخ عبثا فى جذوة الثأر الخامدة ، فصوروا على الكرتون ونحوه صورا وأشكالا بشعة حاقدة ، وقام الرهبان بحمل تلك التصاوير مطوفين بها فى الشوارع والطرقات ، وقد إرتدوا زكائب خشنة منسوجة من شعر المعز ، إمعانا فى إظهار فداحة الخطب ، منادين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، فمن صورة فارس بربرى يوطىء قبر المسيح سنابك فرسه ، وقد راح يبول فوقه إمعانا فى الإمتهان ، إلى صورة همجى لايكف عن صفع المسيح وإدماء وجهه .. ثم يقوم حاملو تلك الصور الكرتونية « بتنوير » الممعن النظر فى الصورة والذى يقشعر لما يرى ، فيبين له أن ذلك الرجل الذى يرى صورته ليس سوى « محمد » الذى راح يصفع المسيح ويدمى وجهه حتى أجهز عليه قتلا .

ولقد مثل مبعوثو البابا ثلاث مرات بين يدى القيصر ، كما مثلوا أيضا أمام مجلس البلاط المنعقد فى ستراسبورج متوسلين بكل من حفل به سجل الخطباء من مفوهين ، لكى يحملوا القيصر على قبول شارة الصليب من البابا لخوض حرب صليبية فأبى ، وخاب المسعى .

ثـم إنصرم عام تام ، بعده إتخذ القيصر قرارا وحده بخوض الحرب ، دون وصـايـة أو تكليـف بـابوى ، وكـان من قبـل قد أرسـل فى ٢٦ مايو ١١٨٨ مبعوثه النبيـل هاينرش فون ديتس برسالة إلى السلطان صلاح الدين معربا فيها عن شكره إيـاه لتلقيـه رسائله ، وعن أسفه لأضطراره إلى خوض الحرب ضده إذا ما رفض صلاح الديـن التـنازل عن بيت المقدس وإطـلاق سراح أسرى الحرب من الفرنجة .

ويكتب القيصر إلى السلطان فى أول نوفمبر عام ١١٨٩ طالبا إليه النزال والمبارزة بينهما فحسب ، إنطلاقا من روح الفروسية ـ وحقنا للدماء ـ ولقد تجنب صلاح الدين الرد المباشر على صديقه الحق « المبجل فريدريك ، ملك ألمانيا العظيم » مقترحا عليه أن يقوم بإطلاق سراح أسرى الفرنجة كافة ، وضمان حرية إقامة الصلوات والقداس وبقية

الشعائر الكنسية أبدا فى كنيسة القيامة ، بل وضمان حرية النصارى فى الحج وزيارة قبر المسيح وسائر مقدسات النصارى ، مقابل إعادة المحتلين الفرنجة لكافة القلاع والحصون التى فى حوزتهم ، الأمر الذى لم يكن فى نطاق سلطة القيصر .

ولا أحد يدرى اليوم القرار الذى اتخذه القيصر آنذاك ، والذى ربما غير مسار الحروب الصليبية لو لم يبترد فى المياه الثلجية لنهر السالب المنحدرة من الجبال جنوب الأناضول ، فعاجلته المنية بالسكتة القلبية ، وهكذا حال الموت دون نزال البطلين الصديقين اللذين ترأسا القوتين العظيمتين المتعاديتين حتى الموت .

بعد سنوات سبع ، نرى القيصر هايزسن السادس ، إبن القيصر الراحل ، يقتفى خطوات أبيه ، فى عقد أواصر الصداقة بحملته السلمية دون إراقة دماء .

ولقد كان حفيد أولهما وابن ثانيهما : القيصر فريدريك الثانى الذى حقق بحملته الصليبية التى لم يرفع فيها سلاحا ، ولم يهرق نقطة دم ، أربعة أضعاف ما كان عرضه من قبل صلاح الدين ، حيث كلفت المعاهدة التى عقدها مع السلطان الملك الكامل إبن أخ صلاح الدين ، المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين والاحترام المتبادل والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية فى كافة أنحاء الأرض المقدسة كما شاءوا . ويزف القيصر البشرى إلى جيشه بأن « المهمة قد كللت بالنجاح » ويعهد إلى « هرمان فون زالتسا » بنقل تلك البشرى بأنه أخيراً تحقق الهدف المنشود ، الذى لم يستطع أحد تحقيقه منذ أمد بعيد ، سواء النبلاء أو العظماء بما اجتمع لهم من حشود ، عتاد وجنود ، أو الوعد و الوعيد .

على أن « ذلك الفتح العظيم والهدف الذى تحقق ، والذى كان خطوة فى سبيل توحيد قلوب الفريقين » لم يرق فى عين البابا المقدس فى روما، فغدا القيصر الألمانى غرضا لسهامه ... أجل : إن ذلك الفتح الذى عجز البابا عن تحقيق أقل منه ؛ على الرغم مما بذل من أقصى الجهد وكل وسيلة ممكنة ، ومما إحتشد له من الحشود الهائلة ، والأموال الطائلة ، وما ضحى به من النفس زاعما أنها الحرب المقدسة جهادا فى سبيل الله وبإسمه لتحرير « القبر المقدس » ، إنما وضع البابا فى موقف حرج ، فكان ذلك بالذات ما أضرم نار المقت على أعلى مستويات الكنيسة للقيصر الألمانى أشد ما يكون المقت إضراما ...

ولقد أنزل البابا بالقيصر وحده لعنة الطرد من رحمة الكنيسة وأعلن موت القيصر بالنسبة له ، وأمر قواته الخاصة المعروفة بإسم (حملة المفاتيح) بالهجوم على صقلية ـ المملكة التى كانت تحت حكم القيصر ـ وإجبار مواطنيها على خلع القيصر والتحلل من يمين الولاء التى كانوا قد حلفوها لبيعته وطاعته ؛ **بل إن البابا ذهب إلى أبعد من ذلك حيث طلب إلى عدوه اللدود سرا : سلطان « الكفار » أن لا يعطى القيصر القبر المقدس ، وبلغ الإنحطاط والتعرى عن الكرامة الرسولية الذروة فى تدبيره مع « فرسان المعبد » خطة لاغتيال القيصر ، عند توجهه إلى نهر الأردن ليتعمد فى مياهه ؛ وكان السلطان المسلم بشخصه هو الذى أنقذ حياة قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، « فقد إستاء لتلك الخيانة الوضيعة أشد الاستياء » وأرسل إلى القيصر الوثيقة التى تثبت الخيانة ممهورة بختم رئيس « فرسان المعبد » .**

وقبل إياب القيصر إلى الوطن ، تجلى الغضب الكنسى والحنق على إبرام إتفاقية السلام والمساواة بين القيصر والسلطان فى إعلان عقوبة الكنيسة على بيت المقدس بأن تصمت نواقيسها جميعا طالما بقى القيصر فى رحابها ، وعنما أخذ القيصر وجيشه فى العودة أمطرهم رجال الكنيسة بوابل من الروث و البراز ، قذفا بالمقاليع .. وتصور رسالة الوداع التى كتبها القيصر وهو مبحر على متن سفينته ، إلى الأمير فخر الدين ـ الذى كان ضيفا فى بلاطه فى صقلية موفدا من قبل السلطان ، والذى كان فى يافا من قبل يقتسم معه خيمته إبان قيامه بإدارة المباحثات بين العاهلين لإبرام إتفاقية السلام ـ مدى تعلق القيصر بأصدقائه العرب ..

وليس من قبيل الصدفة أن تلك الرسالة التى كتبها القيصر نفسه باللغة العربية التى تعلمها منذ صغره فى موطنه صقلية إلى جانب اللغة اللاتينية ـ وقد تعلم بعضها من العرب الذين كانوا يعيشون فى صقلية ـ إلى صديقه العربى ، أعظم رسالة مؤثرة أبدعتها ريشة القيصر ، لأنها وثيقة شخصية فاضت بها نفسه بعد الفراق ، فأملت عليه البوح بمكنون العلائق البشرية ، مما اعتاد أمثاله كتمانه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

أزف الترحال بيد أن قلوبنـا   أبت الرحيل ففارقت أجسادنا

وهوت إلى كنف الصداقة عندكم   مأسورة ، ثم إستقرت عندنا

لا نريد أن نذكر ما نعانى من لواعج ما نكابد من الجوى ، ولا ما يتملكنا من الحزن والأسى ، ولا الشوق المستبد إلى ما نفتقده من الصحبة الممتعة والمجالسة المؤنسة للفخر ، أطال الله عمره ! ومعذرة أننا هنا لم نتمالك أنفسنا ففاضت وأفضت بمكنونها ، وكيف ولست سوى رجل يضطرب فيه ما يضطرب ، وهو يرى أنه فرد وحيد فى هذه الدنيا ، يحن إلى ساعات السكينة والصفاء ، ولقاء الأصدقاء .. إن أسى الفراق قد أعقب السكينة وبلوغ الأرب ، واليأس من التحيين لمحادثتنا ... »

ثم يخاطب القيصر صديقه بلفظ المتكلم المفرد ، تاركا صيغة الجمع التقليدية التى يتوسل بها جلالته ، كاشفا بذلك كل غطاء يحجب ذاته عن صديقه ، فيقول : « حينما فارقتنى كنت فى حالة ، لو أن أحدا من البشر خيرنى فيها بين البعد عنك أو الموت ، لكنت أجبته ضارعا : لبيك ! جُد على بهذه المكرمة ! » .

والحق أن موقف القيصر هذا ، الذى يزن فيه المرء خصمه ويقدره حق قدره مجردا عن التجنى ومشاعر البغضاء ، رائيا فيه الإنسان ، طالما يستحق أن يتصف بالإنسانية ، فيحترمه لذلك ؛ إنما هو خصيصة أخلاقيات المحاربين الجرمان القدامى ، ولقد ترسخت تلك الخصيصة وفرضت نفسها صورة قديمة من صور الفروسية خاصة فى ألمانيا .

ليس الخيال وحده إذن هو الحافل بالشهادات القيمة فى معاملة الخصم معاملة تخلو من التجنى الظالم ، وتقيمه موضوعيا ، وتقدم له ما يستحق من احترام وتقدير ، وتتيح للصداقة أن تنمو وتترعرع بين الخصوم .

ونرى الشاعر يرفع صوته معترضا على تعاليم الكنيسة التى تحكم بحياة من عُمِّد أو بموت غير المُعمَّدين ، فيقول :

« أليست خطيئة أن المرء هكذا

يذبح البشر الذين لم يأتهم نبأ التعميد

كما تذبح الماشية ؟!

بل إننى أعنى أن هذه الخطيئة من أشد الكبائر

لأننا جميعا خلق الله ؛

كافة الأجناس بألسنتها الإثنتين والسبعين

إنما هو الذى خلقها وسواها »

ومن الشواهد الدالة على هذا الموقف الأخلاقى أن أحد الألمان الذين شاركوا فى الحروب الصليبية ، بعد عودته إلى وطنه على نهر الراين لم يجد بدا من تحرير رسالة إلى سلطان مصر الملك الكامل يعبر فيها عن مشاعره تعبيرا مؤثرا ، وقد ترسخت فى مخيلته المذابح الفظيعة التى أبيد فيهاأهل دمياط بمصر جميعهم ، بناءا على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجالات الكنيسة وذلك بعد الاستيلاء على حصن دمياط بعد حصار طال ...

لم يكن ذلك الألمانى سوى عالم الفلسفة اللاهوتية « أوليفروس » من كولونيا على نهر الراين بألمانيا الذى بهره ما اكتشفه من المروءة والفروسية العربية التى أثبتها فى شخصية السلطان الكامل ، على الرغم من جميع الأهوال والفظائع التى اعتادها السلطان من قبل النصارى ، ولقد سجل ذلك الشاهد ما لمسه بعينه كما لو كان ذلك حدثا سعيدا لا يمكن للعقل أ ن يتصوره ، فقام بكتابة الرسالة التالية إلى السلطان الكامل عام ١٢٢١ ، والمعروف بصداقته للقيصر فريدريك الثانى ، إذ أنه لم يقتص من الصليبيين العين بالعين والسن بالسن وإنما أطعمهم فى مسغبتهم أربعة أيام طوالا ، مرسلا إلى جيشهم المتضور جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف ، ومواد غذائية أخرى ، كتب يقول :

« منذ تقادم العهود ، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود ،

خاصة إزاء أسرى العدو اللدود ، ولما شاء الله أن نكون أسراك ، لم نعرفك مستبدا طاغية ، ولا سيدا داهية ، وإنما عرفناك أبا رحيما شملنا بالإحسان والطيبات ، وعونا منقذا فى كل النوائب والملمات . ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله .. إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم وأذقناهم مر العذاب ، لما غدونا أسراهم وكدنا نموت جوعا ، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة ، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان ، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان » .

هنا كان ينبغى أن يقرع ناقوس ، وأن تتجاوب لرنينه نواقيس أخرى .. وإذا كان عربى قد قدم مثل هذا البرهان على السمو الإنسانى والمروءة المتناهية ، فإن ذلك ليس بدعا أو حدثا مفردا ، فثمة شواهد أخرى فى هذا الصدد ، ونذكر هنا الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد ، الذى نشأ فى الغرب تنشئة الملوك الشرفاء ، فقد مرغ تلك السمعة الطيبة فى العار ، ودأب على تلويثها بشكل مخز دائما أبدا ، فبينما أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة . إذا هو فجأة منقلب المزاج فيأمر بذبحهم جميعا ، ويحذو قائد الجيش الفرنسى حذوه سريعا ، وهكذا لطخ بفعلته النكراء ، وسفكه تلك الدماء سمعته إلى الأبد ، وضيع ثمرة إنتصاره فى أذيال الخزى والهوان ..

وعلى العكس من هذا عرفنا صلاح الدين ، الذى أخزى قواد الجيوش النصارى ، فلم ينتقم قط من أسراهم النصارى الذين كانوا تحت رحمته ، ردا على خيانتهم وغدرهم ، وفظاعتهم الوحشية التى ليس لها حد .

ولقد أخزاهم صلاح الدين مرة أخرى حين تمكن من استرداد بيت المقدس ، التى كان الصليبيون قد انتزعوها منه من قبل ، بعد أن سفكوا دماء أهلها فى مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة ، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى إنتقاما لسفك دم المسلمين ، بل إنه شملهم بمروءته ، واسبغ عليهم من جوده ورحمته ، ضاربا المثل فى التخلق بروح الفروسية العالية .

على العكس من المسلمين لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى يفرض

عليها أن تسمح لأولئك « الكفار » بممارسة حقوقهم الطبيعية ، الأمر الذى يمليه على الأقل حق الجوار ومحبته ، كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنه ليس لزاما عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التى تعطيها لغير النصرانى .

وحينما سفك فرسان الحملة الصليبية عام ١٢٠٤ [1] حتى دم إخوانهم من النصارى فى بيزنطة ، أخذ نيكتاس أكوميناتوس يبكى مصارعهم قائلا : « بل إن محاربى المسلمين الأعداء أنفسهم ، رحماء طيبون ، قياسا إلى أولئك القوم ، الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم » .

والحق أن الفروق الحاسمة فى التعامل مع أتباع الملة الأخرى راسخة فى تفهم كل من الإسلام والنصرانية لطبيعته وفى إختلاف تفهم كل منهما للبشر

---

١ - راجع فى قصة الحضارة - ول ديورانت ، الجزء ١٥ ما فعلته الحملة الصليبية الرابعة فى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية :

(أ) وحدث فى هذه الأثناءأن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية ، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار فى المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً .

(ب) وأخذ اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم (١٢٠٤) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة . ، فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومه نفسها على أيدى الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل فى هذه الحوادث كثيرون من اليونان - فلعل عد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ، واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والحوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ، ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ فى أوروبا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة إيا صوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣ .

(جـ) وبُذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع القليلون من الجنود بالعاهرات حتى أن إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ، فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين . وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

الصورة السائدة عن الإنسان المسلم ..
الخطاء الأثيم ؟ العبد المذعن لله ؟ الجبرى ؟ الجهاد ؟

إن مدى نقص معرفة الغرب بالإسلام ـ رغم كون أمة الإسلام أكبر أمة تلى النصارى عددا على الصعيد العالمى [1] ـ يتجلى فى التصورات التى تحكم نظرة الغرب إلى الإنسان المسلم .. فإذا كان الإسلام يعنى « الامتثال لأمر الله والاستسلام لمشيئته » فإن ذلك معناه أن المسلم مجبر مسير ، وأنه « عبد الله » نتيجة خطيئة آدم ، إذا كانت تلك الحجج مما تقذفه شفاه المحتج من أحكام ، فإنها ليست سوى النظرة النصرانية ذاتها إلى الإنسان النصرانى ، راح يخلعها على الصورة الإسلامية للإنسان .

والحق أن على الغربى أن يطرح جانبا تلك المصطلحات الذائعة والتصورات الشائعة ، فالإسلام لا يقول أساسا بوارث « الخطيئة الأصلية » ولا بأن أول إنسان كان أثيما ، بمعنى أن الخطيئة أو الإثم ليس أصل الفطرة التى فطر الإنسان عليها ، بل إن الإثم قد يغتفر إذا تاب الإنسان توبة نصوحا ، حيث يغفر التواب الرحيم الذنوب .[2]

أجل ! إن الله تاب حتى على آدم ـ ولقد ألح الإنجيل على خطيئة آدم مبينا أن كافة الويلات والشرور المستشرية فى هذه الدنيا مصدرها الأول آدم ، والذى لم ينل غفران الله بواسطة أى إنسان إلا عيسى المخلص يسوع ـ نقول إن الإسلام لا يرى هذا ، إذ ينص على أن الله غفر لآدم بعد أن تاب كما تبين ذلك الآية السابعة والثلاثون من سورة البقرة :
﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ﴾

وينص القرآن فى سورة السجدة ، الآية التاسعة على أن الله نفخ فى الإنسان من

---

١ - قد يكون التعداد قريب من التساوى الآن .

٢ - بل إن الإنسان فى الإسلام خليفة الله على الأرض ، يُولد على الفطرة .

روحه ﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه ...** ﴾ فهو إذن يحمل فى ذاته الروح الإلهية ، وأنه بصفته مسلم ، مشمول مباشرة ودونما وساطة شفيع أو نحوه ، بعلاقة عبوديته لله .

هكذا فالإنسان فى الإسلام يحمل فى ذاته ما نفخه الله فيه من روحه ، وهو فى الوقت نفسه عبد لله ، كفء لحمل التكليف ، خليفة فى الأرض .

ثم إن العبودية فى المشرق العربى قبل الإسلام لا تمت بصلة للرق الذى ألفناه فى الصين أو لدى الرومان ، حيث كان الرق استعبادا ، واستغلالا ظالما واستبدادا .

لقد كان الرق لدى العرب أقرب إلى تبادل المصلحة بين الطرفين لإعالة المعدم وتحمل المسئولية تجاه الآخرين .

تباين فهم النصرانية والإسلام كل منهما لطبيعته

تستند النصرانية فى فهمها لذاتها إلى العهد القديم بوصفه تمهيدا لخطة الخلاص والنجاة الإلهية وارهاصاً بمجيئ عيسى ، وإلى العهد الجديد بوصفه نبأ عن بشارة عيسى بملكوت الله ، وإلى تفاسير بولس ورسالته لخلاص الإنسان [1] من خلال موت يسوع المسيح .

على العكس من ذلك يرى الإسلام شموله للعالم أجمع بوصفه « دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها منذ بدء الخلق » بمعنى أنه عهد الله المطلق إلى خلقه منذ الأزل غير مرتبط بزمان ، والذى أرسل رسله به ـ دينا واحدا لا يتبدل ـ إلى أقوامهم كافة .

إن الإله ، « الله » باللغة العربية ـ وهو الذى عبدوه قبل مبعث محمد بمئات السنين ـ ليس إسم علم مثل « يهوه » فالله تعنى الإله ، كما توضح الآية مئة وست وثلاثون من سورة البقرة ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ . وآخر نبى مرسل هو محمد خاتم النبيين . والكفار هم أولئك الذين ارتدوا بخروجهم عن الكتاب المنزل من عند إله

---

١ – تشير المؤلفة إلى الإصحاح الخامس من رسالة بولس إلى أهل رومية : (٨) ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا (٩) فبالأولى كثيراً ونحن متبررون الآن بدمه نخلص من الغضب (١٠) لأنه إن كنا و نحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه ، فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته ـ المترجم .

واحد ، والمشركون وعبدة الأصنام ومن يتخذ مع الله إلها آخر .

أما أهل الكتاب - اليهود والنصارى والصابئون والمجوس - حتى من حرف منهم ما أوحى إليهم من ربهم ، آمنهم الله وأذن لهم أن يقيموا صلواتهم وشعائرهم فى معابدهم ، وقد ضمن ذلك لهم محمد نفسه كما ورد فى الصحاح حيث شدد الوصية بأهل الذمة : « من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة »[1] .

فضلا عن هذا فإننا نصطدم بأحكام مسبقة ظالمة شد ما شوهت وجه الإسلام ، ولا تزال حتى اليوم تتناوله بالتجريح فى موقفها المعادى له أشد العداء ، ولا أدل على هذا من كلمة الفيلسوف الألمانى الكبير « لايبنتز » (١٦٤٦ - ١٧١٦) وهى كلمة تدل على الجهل التام بالإسلام ، حيث زعم أن « القدر المقدور بالجبر » ، والذى يتيح للإنسان أن يرجع البصر فيما يصيبه من قضاء ، إنما يسبغ عليه السكينة ، وهكذا يصور القدر النصرانى « الذى ينبغى أن يذعن له ويتقبله النصرانى بالصبر ، راضيا أن الرب الرحيم مصرف الأمور » ، على النقيض من القدر المحمدى « الخانع المتشائم كل التشاؤم جملة وتفصيلا ، حتى إن الإنسان لا تتاح له الفرصة مرة واحدة لتجنب الأخطار التى تهدده أبدا ، وإنما عليه أن يرمى بنفسه فى خضمها أعمى البصر والبصيرة » ..

إن هذا محض إفتراء على الحق ! بل إننا هنا نصطدم - ولكن على مستوى فكرى أعلى - بالغلو المفرط المنحاز فى تصويره للخصم ، وهو نفسه الغلو الذى عهدنا من قبل مستهل القرون الوسطى .

والحق أن هذا الحكم المسبق المفترى والذى لا يفتأ مغذوه يلحون على إنمائه زاعمين أن التواكل المذعن خصيصة تسيطر على المسلمين ، إنما يتعارض مع روح القرآن ، وتنفيه الأحاديث النبوية نفيا قاطعا ، بل إن كليهما يدعوان الإنسان إلى الاحتكام إلى إرادته الحرة للبت فى الأمور ، ويهيبان به أن يتبصر - إنطلاقا من كونه مسئولا - ويتفحص الإمكانات المختلفة ، والأهواء والمشارب المتعارضة ، ليميز بينها وليختار إختيارا حرا بين الفضيلة والرذيلة ، فإما أن يكون هداه هواه ، وإما أن يسلم وجهه لمشيئة الله ، وليس معنى ذلك

١ - لا شك أن المؤلفة تعنى ما رواه الخطيب باسناد حسن ، وهناك أيضا أحاديث أخرى حول حسن معاملة أهل الذمة ، كالذى رواه أبو داود « من ظلم معاهداً . أو انتقصه حقا ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » - المترجم .

التـوكل التـواكل الأعمى السـلبى المذعن إذعانا أعمى للقضـاء .[1]

إن القرار الحر يشترط أول ما يشترط وعى المسلم وإدراكه لمسئوليته ، فهو نفسه يستطيع أن يغير نفسه ، كما تنص سورة الشمس مثلا ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ الآيتين ٩ و ١٠ . ويفسـر العـلامة الأستـاذ عبـد الجـواد فـلا تـورى « استقلالية الإنسان » تلك والتى تبدو فى قراره الحر الواعى وفى مسئوليته وحده عما يأتيه من قول أو فعل قائلا : « بل إن الإنسان بهـذا يتعـدى (نطاقه) إلـى النطـاق الإلهى ، بمعنى أن كل ما يصيبه من عند الله إنما هو نفسه المتسبب فيه » ، كما تؤكد الآية الحادية عشرة من سورة الرعد ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ فالإنسان فى واقع الأمر هو صانع قدره ، فيما يخصه هو نفسه .

أما المصطلح الرابع الذى يسهم فى تشويه صورة الإنسان المسلم لدى الغرب ، والذى لا يعرفه الغرب ولا يستعمله إلا من أضيق أبوابه فهو « الجهاد » : وليس الجهاد ببساطة ما نطلق عليه مصطلح الحرب المقدسة ؛ فالجهاد ـ كما يذكر الألمانى المسلم أحمد شميده ـ « هو كل سعى مبذول ، وكل اجتهاد مقبول ، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا ، حتى نتمكن فى هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومى المتجدد أبدا ضد القوى الأمارة بالسوء فى أنفسنا وفى البيئة المحيطة بنا عالميا ؛ فالجهاد هو المنبع الذى لاينقص والذى ينهل منه المسلم مستمدا الطاقة التى تؤهله لتحمل مسئوليته ، خاضعا لإرادة الله عن وعى ويقين . إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع بردع كافة القوى المعادية التى تقف فى وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام إجتماعى إسلامى فى ديار الإسلام » .

أكان إنتشار الإسلام بحد السيف حقا ؟!

على العكس من هذه المغالطة التى تعد بلا شك من أقسى الأحكام الظالمة المسبقة الراسخة ضد الإسلام ، يثبت التاريخ لنا أن الدور الحاسم فى انتشار الإسلام يرجع إلى التسامح العربى . ولم يكن الآباء الروحيون للكنيسة فحسب هم الذين لم يتوقعوا ذلك . واليوم وبعد إنصرام ألف ومائتى عام لا يزال الغرب النصرانى متمسكا بالحكايات

١ – تغيرت التهمة الآن إلى عكسها تماماً ، فأصبحت ثورية الإسلام ودعوته للعصيان والتمرد ، بل والعنف .

المختلفة الخرافية التى كانت الجدات يروينها ، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد نشرت الإسلام « بالنار وبحد السيف البتار » من الهند إلى المحيط الأطلنطى [1] ، ويلح الغرب على ذلك بكافة السبل : بالكلمة منطوقة أو مكتوبة ، وفى الجرائد والمجلات ، والكتب والمنشورات ، وفى الرأى العام ، بل فى أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام .

لا عجب إذن أن غدا هذا الشعار « إنتشار الإسلام بالنار ، وحد السيف البتار » كلمة سائرة على الرغم من كون ذلك كذب لا أساس له من الصحة التاريخية أو الحقيقة الواقعية ..

﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ تلك هى كلمة القرآن الملزمة كما ترد فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة ، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى وإنما بسط سلطان الله فى أرضه ، فكان للنصرانى أن يظل نصرانيا ، ولليهودى أن يظل يهوديا كما كانوا من قبل . ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم ، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك . ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم ، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم .

بل قيل إن الفاتحين وضعوا العراقيل أمام أهل الأمصار المفتوحة من أهل الذمة ، وذلك لحاجتهم إلى الجزية التى كانت تسقط عن الذمى بمجرد اعتناقه للإسلام [2] .

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعيا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين ، ولقد ألحوا فى ذلك شغفا وافتنانا ، أكثر مما أحب العرب أنفسهم ، فاتخذوا أسماءً عربية وثياباً عربية ، وعادات وتقاليد عربية ، واللسان العربى ، وتزوجوا على الطريقة العربية ونطقوا بالشهادتين . لقد كانت الروعة الكامنة فى أسلوب الحياة العربية ، والتمدن العربى ، والسمو والمروءة

---

١ - يبلغ المسلمون من الجنس الملاوى جنوب شرق آسيا أكثر من ٢٠٠ مليون ، أى أكثر من عدد المسلمين العرب ، ومعروف أنه لم يصل جيش عربى إلى تلك المناطق ، كذلك وصل الإسلام الصين وروسيا وجنوب إفريقيا بدون جندى واحد ، واليوم والمسلمون مستضعفون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يدخل فى الإسلام مئات الألوف سنوياً من الغرب والشرق.

٢ - كذلك كانت تسقط الجزية من الذمى لو التحق بالجيوش الإسلامية ، وفى هذه الحالة يكون له نصيب مع بقية الجند فى أى مكاسب أو مكافآت فالجزية هى تكلفة الحماية .

والجمال ـ وباختصار : السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية ، بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس ـ كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم .

لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى ، فقد كانوا شهود عيان فى الأندلس لقوة جذب المد الروحى والفكرى العربى ، الذى سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعا وعن طيب خاطر ، يشهد بذلك أسقف قرطبة (ألقارو) الذى راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه : « **إن كثيرين من أبناء دينى يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين ، ليس ليدحضوها وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم . وأين نقع اليوم على النصرانى ـ من غير المتخصصين ـ الذى يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل ؟ بل من ذا الذى يدرس منهم حتى الأناجيل الأربعة ، والأنبياء ورسائل الرسل ؟ .. واحسرتاه! إن الشبان النصارى جميعهم اليوم ، الذين لمعوا وبذوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربى ! إنهم يتعمقون دراسة المراجع العربية باذلين فى قراءتها ودراستها كل ما وسعهم من طاقة ، منفقين المبالغ الطائلة فى اقتناء الكتب العربية وإنشاء مكتبات ضخمة خاصة ، ويذيعون جهرا فى كل مكان أن ذلك الأدب العربى جدير بالإكبار والإعجاب ! ولئن حاول أحد إقناعهم بالإحتجاج بكتب النصارى فإنهم يردون بإستخفاف ، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم ! ... وامصيبتاه ! إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم ، فلا تكاد تجد اليوم واحد فى الألف يستطيع أن يدبج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة ، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد من يحسن منهم العربية تعبيراً وكتابة وتحبيرا ، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية ، حتى لقد حذقوه وبذوا فى ذلك العرب أنفسهم** » .

إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير ، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى « ڤولشير الشارتى » وها نحن الذين كنا

أبناء الغرب قد صرنا شرقيين ! ، ثم راح يصور أحاسيسه وقد تملكه الإعجاب بالسحر الغريب لذلك العالم العجيب بما يعبق به من عطر وألوان ، تبعث النشوة فى الوجدان ، ثم يتساءل بعد ذلك مستنكراً : « **أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب ؟!** ، **بعد ما أفاء الله علينا وبدل الغرب إلى الشرق** » .

الإسلام : منافسا خطيرا للكنيسة

ليس أدل على خطورة الحالة ـ واستفحال المنافسة للكنيسة ـ وإدراكها لجدية الأمر من محاولتها إقناع أنصار العرب المتحمسين لهم بأن النصرانية لم تلفظ أنفاسها بعد ، فعهدت إلى يوحنا الإشبيلى رئيس الأساقفة بترجمة الإنجيل إلى لغة القرآن العربية التى إستحبوها وفضلوها على اللاتينية ، التى نسوها .

وليس من قبيل الصدف أن تضطر الكنيسة إلى الاقتناع بأن دعواها فى تفردها بالأحقية المطلقة فى الهداية ومنح الخلاص ، قد باتت مهددا كيانها ، وأن الإسلام ليس مجرد العدو الدينى الشديد البأس ، وإنما هو قبل كل شئ الخصم العتى المنافس الذى يجب أن تحسب حسابه وتحتشد له ، لاسيما بعد أن هرع أبناؤها من المؤمنين يدخلونه طائعين .

ولم يجد الكنيسة فى مقاومتها للإسلام ما أعدت من جيوش شاهرة السلاح ، منظمة مؤهلة للكفاح ، فلجأت إلى ماهو أمضى وأشد فتكا ، ألا وهو السلاح النفسى الدينى ، مؤكدة على قداسة رسالة الفرسان الصليبيين ، الذين اصطفاهم رب العالمين ، وحطة قدر المنافسين ، كل ذلك فى نظام حماسى يضطرم إضطراما ، تقليدا للنظم العربى المقفى والسجع الموزون الذى أمسى يحتذى . ولم يقتصر ذلك على الوعظ الخطابى الكنسى للقساوسة الكاثوليك وحدهم – وهو وعظ أفاد دون وعى من التوسل بالقافية التى أخذها شعراء الحروب الصليبية عن العرب ـ وانطلقت أبواق الدعاية مستصرخة منذرة بالثبور ، وعظائم الأمور مستهدفة فى ذلك إبراز ترسيخ الصورتين المتناقضتين اللتين أريد لهما أن تكونا دعامتى التعبئة المعنوية أو التسليح الخلقى المتحيز فى غير إنصاف : صورة تحتفى بالنصارى ، تكيل لهم المديح بصفتهم نبلاء عظماء ، والذين ينبغى أن يحظوا بوافر جزاء السماء ، فى تألق وبهاء ، وصورة تقوم

على النيل الظالم من المسلمين « الذين لا يستحقون سوى القتل وأن يخروا غارقين فى دمائهم تطأ أشلاءهم الأقدام وطئًا » .

وتطفح بالمقت الضارى الأعمى للإسلام قصائد شعراء البلاط العظام فى « دير ريجنز بورج » وينسحب ذلك أيضا على شاعر الكنيسة فى « ريجنز بورج » كونراد ، كما فى قصيدته « نشيد رولاند » التى نظمها عام ١٣٠٠ ميلادية ، والتى وصف فيها المسلمين بأنهم « الشعب الذى لا يُروى تعطشه لسفك الدماء ، والذى لعنه رب السماء » وأنهم « كفرة وكلاب ، وخنازير فجرة » وأنهم - وهم عبدة الأصنام التى لا حول لها ولا قوة - « لا يستحقون إلا أن يقتلوا وتطرح رممهم فى الخلاء ، فهم إلى جهنم بلا مراء » ويطفح « نشيد رولاند » لذلك القسيس الشاعر بأشد البغضاء ، فيتوجه بخطابه إلى الخصم المسلم قائلا :

« إن مخمت - ولا ننسى هنا أن نشير إلى هذا التحريف المشوه للنبى محمد عمدا واستخفافا ، كما نعرف من الكتابات التى تصوره صنما ذهبيا - قد أرسلنى إليك ، لأطيح رأسك عن كتفيك ، وأطرح للجوارح جثتك ، وأمتشق برمحى هامتك ، ولتعلم أن القيصر قد أمر كل من يأبى أن تعمده الكنيسة « ليس له إلا الموت شنقا ، أو ضربا ، أو حرقا » . إن أولئك جميعا دون إستثناء حزب الشيطان اللؤماء ، خسروا الدنيا والآخرة حل عليهم غضب الله ، فبطش بهم روحا وجسدا ، وكتب عليهم الخلود فى جهنم أبداً » .

أما الشئ الذى تأبى على فهم الكنيسة فاستحال عليها قبوله وأقض مضاجعها ، فهو دخول شعوب الأقطار المفتوحة فى الإسلام أفواجا بمحض إرادتها ، دون مساعى إرساليات التبشير ، ودون الإكراه فى الدين . أجل ! لقد كانت السماحة العربية ، والروح العربى وأسلوب الحياة العربى ، مما إستحوذ على نصارى إسپانيا وليس كما يزعم المبطلون زورا عظيما ، وبهتانا عنيدا أثيما - بأنهم أرغموا على الإسلام خشية السيف البتار ، والحريق بالنار .

على أن كل ذلك مما تحلى به العرب ، والذى يعد خصيصة فارقة مميزة للعرف العربى الموصى بالسماحة التى ينص عليها الإسلام ، قد فقد بعض ما تميز به من قوة خلقية إلزامية بعد تدفق جحافل الأتراك والتركمان فى آسيا ، والمد المغولى المكتسح ، وتوسع سلطنة الأتراك العثمانيين .

أما الإجهاز على السماحة والتسامح نهائيا فى إسپانيا ، فقد تم على أيدى الدويلات النصرانية التى اعتصمت فى شمال إسپانيا ، والتى أقصت العرب شيئا فشيئا إلى أن تمكنت من صدهم وطردهم ، متوجة إنتصارها ذلك باستعادتها عام ١٤٩٢ ميلادية الدرتين العربيتين غرناطة والحمراء ، إذ لم يكن إنتصار النصرانية يعنى سوى طرد اليهود والمسلمين واضطهادهم وإكراههم على التنصر ، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التى قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينا ، والحرق العلنى ، فى إحتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنيسية لكل من إعتنق الإسلام أو اليهودية .

وما أن دالت دولة العرب فى إسپانيا حتى إندثرت معهم أزهى وأخصب حضارة ملكتها أوروپا فى العصور الوسطى ، وغرقت فى بحر من الرعب ، وأتت فيه أمواج التعصب الدينى على كل شىء وابتلعته إبتلاعا .

ولم تلغ محاكم التفتيش إلا فى ١٨٣٤ .

الفصل الثالث

شارل مارتل : منقذ الغرب » كما يزعمون !

يذكر لودفيج شتاكه فى « تاريخ ألمانيا » ج ١ ص ١٤٩ ما يلى :

فى عام ٧٣٢ زحف العرب من إسپانيا بقيادة عبد الرحمن ، قاطعين جبال البرانس منحدرين إلى جنوب فرنسا ، فهزموا الدوق إيدو حاكم أقيطنيا وأتوا على الأخضر واليابس بالنار والسيف البتار حتى ضواحى طورس . ولقد كانت قضية الساعة آنذاك مستقبل أوروپا أو خضوعها لحكم الصليب أو الهلال ، أو بمعنى أدق للتربية والحياة الفكرية النصرانية الچرمانية أو للإسلام .

ولقد كان الغرب فى ضائقة عظمى ، بينما كانت جحافل العرب لا تحصى عددا ، ثم التقى الجمعان بين طورس وبواتيه ، ودامت المعركة يوما كاملا : بيد أن شارل حطمهم تحطيماً ، كأنه مطرقة ، هشمهم دما وعظما ، وذلك بما جيّش من حشوده المدربة على القتال من عماليق النمسا والچرمان ، مثل قبائل تيرنجن والألَيمان وباڤاريا ! وبما انضم إليهم كذلك من جحافل اللومبارديين [1] فتصدوا للمعتدين المسلمين ، الذين تبدد زحفهم أمام بسالة شارل وشعوب الفرنجة ، وتحطمت شوكتهم على عتبة ذلك الحصن الحصين ، وسقط عبد الرحمن صريعاً ، وحوله ، كما يذكر ، أشلاء ثلاثمئة وخمسة وسبعين ألف عربى ، وأما بقية جيشه فقد ارتدت على أعقابها هربا : هكذا نجت أوروپا ، و أما شارل فقد صار بطل النصرانية المبجّل . »

هكذا يصف ذلك التقرير ، كالمعتاد ، حادثة مضى عليها أكثر من ألف عام .

١ ـ اللومبارديون : شعب جرمانى استقر فى شمال إيطاليا حول ميلانو منذ غزوه لها فى القرن السادس الميلادى ، وموطنهم الأصلى حوض نهر الإلبا السفلى ! وقد أقاموا هناك دولة مستقلة عاصمتها (باڤى) عام ٥٧٢ م ، وقد هزمهم شارلمان الكبير وتوج ملكا عليهم ! وسقطت تلك المملكة عام ١٠٤٧ (نقلا عن معجم الأعلام الفرنسى لاروس) ـ المترجم .

فياللعجب أن تستعيدها ذواكر القوم اليوم مغتنمين الفرصة المواتية بمناسبة مرور ألف ومائتى عام على تلك الخرافة المبجّلة !

فى محاولة لإحياء ذكرى تلك الموقعة المحتومة التى حسمت مصير أوروبا !!! وأنقذتها من « الواجب المقدس الملزم للعرب كافة أن ينشروا تعاليم النبى حتى لو اضطروا فى ذلك للتوسل بالنار ، والسيف البتار » كما كتبت إحدى الصحف الألمانية اليومية فى ١٦ أكتوبر ١٩٨٢ ، وياللعجب كذلك من أسلوب كتابة التاريخ كتابة مغرقة فى الخيال كما تبين الأسطر التالية :

مساجد إسپانيا تنادى بقتال أعداء الله بأمر من عامل الخليفة عبد الرحمن وتنفيذا لخطته التوسعية الخطيرة : فلم تقتصر أطماع الخليفة على أرض الغال ، وإنما أراد أن يواصل الزحف قدما من هناك صوب الشرق ! مقتحما بخيوله وفرسانه قلب أوروپا ، مخترقا إياها حتى يبلغ آسيا من طرف الخلافة الآخر فى المشرق العربى !!

ويبلغ الافتئات مداه فى أحد كتب التاريخ الألمانى المدرسية فى زعمه التالى :

« إن قارتنا جميعها تهدّدها خطر الوقوع تحت قبضة حكم استبدادى غريب ، حكم جنس سامى » ويجسر ذلك الكتاب المدرسى على ملء مخيلة التلاميذ الصغار بصورة مجسدة لذلك الخطر المزعوم الذى كان على وشك العصف بأوروپا على أيدى الجحافل الهمجية ، سود البشرة ، واضعى سيوفهم قتلا ، واطئين بحوافر بغالهم كل كائن حى يعترض طريقهم .

ولقد تشابهت كتابات رهبان العصور الوسطى والمؤرخين ، حيث حرص أولئك الرهبان على الزعم بأنهم كانوا شاهدى عيان مؤرخين للأحداث ، متشدقين فخرا بأنهم راحوا دائما يذودون عن مجد النصارى ، فقتلوا من الأعداد آلافا لا تحصى (حرفيا : أرقاما فلكية) ، وروج كلا الفريقين مزاعم حول مقاصد الغزاة العرب ، بدءا من سرقة كنوز الكنيسة فى طورس أو السطو لمجرد النهب ، وذلك ليضفوا على الأحداث أبعاداً توحى بأن العدو هو « هانيبال » [1] الجديد ، الذى يسعى حثيثا لإبادة الحضارة الإندروچرمانية أو مقارنتهم بقبائل الهون (أتّيلا) الذى أباد شعوبا بأسرها ،

---

١ - إشارة إلى الهزيمة الماحقة للرومان على يد هانيبال فى عام ٢١ قبل الميلاد - المترجم .

وانتهاءا بأنهم يستهدفون أبادة الحضارة النصرانية « وإكراه أهلها على اعتناق دين محمد » .

نحن نتساءل : ما حقيقة الأمر ؟

بعد أن عبر طارق بن زياد قائد البربر المضيق الذى يحمل اسمه وبعد انتصاره الحاسم فى موقعه وادى بكّة عام ٧١١ [1] (على الملك رودريك : المترجم) زالت مملكة القوط الغربية التى مزقها الضعف وخضعت إسپانيا للإسلام .

والحق أيضا أن الغيرة دبّت بين الغزاة (البربر) والجيوش العربية والقبائل التى نزحت فلحقت بهم فى إسـپانيا ، هنا أحس البربر أنهم خُذلوا ، وارتد زعيمهم مُنُسّ عن الإسلام وفر إلى الشمال منحازا إلى الدوق إيدو حاكم أقيطنيا ، وتزوج ابنته . أما عبد الرحمن بن عبد الله الذى ولاّه الخليفة من دمشق منصبُ مُنَسّ ، فقد قام بتعقب ذلك الخائن ، عابرا بجيشه جبال البرانس فهزم مُنَسّ وقتله وهزم الدوق إيدو بين « جارون » و« دوردونى » ، ثم تعقبّه فى اتجاه « بواتيه » ، وخلفهاعند « نيرى » فى الحادى عشر من أكتوبر (تشرين الأول) عام سبعمائه واثنين وثلاثين ميلادية كان فى انتظاره شارل مارتل والدوق إيدو ومن اجتمع له من أشياعه ، ومن الجيش النمساوى ، وحلفائه الذين أتحد معهم من الأسر المالكة الحاكمة من چرمان الفرنكن ، وسقط عبد الرحمن قتيلا ، ثم أخلى قوّ اسوُه ونَبّالتُه ليلا ساحة المعركة ! وليس معنى هذا بحال أن المسلمين انسحبوا من جنوب فرنسا ! على العكس مما تزعم خرافة إبادتهم .

لقد استقر المسلمون آنذاك عشرين عاما أخرى ، تبعتها أجيال عدة فى « نربون » و« كركسونا » و« نيميس » ، ولقد حاربهم شارل مارتل ثلاث مرات أخرى كان الحظ فيها سجالا ، كما أن من أعقبوه لم يتمكنوا من غلبهم واختراق المدن التى أحكموا تحصينها وردهم إلى ما وراء جبال البرانس إلا بعد معارك استغرقت أكثر من مئة عام كاملة .

على أن شارل مارتل والتاريخ المعاصر له آنذاك ، لم يخلعا على معاركه التى خاضها ضد العرب بأية حال من الأحوال تلك الأهمية

١ – للمؤرخ الإسپانى إجناسيو أولاجى نظرية جديدة عن دخول المسلمين إسپانيا ، مفادها أنهم دخلوها تلبية لدعوة الإسپان عندما رأوا تسامح المسلمين فى شمال إفريقيا ، مع ما كانوا يعانوه من ملكهم رودريك من ظلم وقهر وتعصب دينى ضد المسيحيين المخالفين واليهود ـ المترجم .

التى قُيِّمَ بها انتصاره على قبائل الچرمان من الفريزن والسكسون والأليمان .

وعندما أراد القيصر لودڤيج المُتَبتِّل تخليد ذكرى أسلافه ، فإنه أمر بأن تسجل على حوائط القصر الإمبراطورى فى إنجلهايم ذكرى قهر جده شارل مارتل للچرمان من الفريزن فى لوحة تاريخية : إن ذلك فحسب هو سبب إطلاق لقب " المطرقة " الذى حظى به شارل .

وبعد ! فإن شارل مارتل ذاك – الذى شاعت دعايات الحروب الصليبية فيما بعد أن تخلع عليه هالات التمجيد والتعظيم وأنه "بطل النصرانية " استولى على الممتلكات الكنسية من كنائس وأديرة وضياع وأوقاف ! ونهب كنوزها لتمويل جيوشه وفرسانه الجدد ولتزويدهم بالعتاد والسلاح ؛ ومنحهم الإقطاعيات ؛ ولهذا :

استنزلت اللعنات على قبره بأن يصير متفحما ؛ وعلى جثمانه الذى على الشيطان أن يختطفه ويلقيه فى نار السعير ، وبئس المصير .

ثم إنه آنذاك فى عصر تلك المعركة لم يكن « الغرب النصرانى » شيئا مذكورا على الإطلاق : ألم يتحدد بعد عام ٧٣٢ - وليس قبل ذلك بحال - مستقبل غرب أوربا بمعنى : أفتكون السيادة فيه للنصرانية التابعة لروما أم لنصرانية متحررة من التبعية لروما ؟

حتى عام ٧٣٢ لم يُبَت فى ذلك ، وكان الأمر مُعَلَّقًا ! حتى لنرى البابا جريجورى الثالث - وهو سورى - يرسل مبعوثه « بونيفاتيوس » إلى الچرمان (الفرنكن) على الضفة اليمنى من نهر الراين ، ثم إلى الچرمان فى مناطق «هسن وتيرنجن » فتتناهت شكاواه المُرة من كل مكان حله إلى أسماع البابا فى روما ! حول « **غلظة تلك القلوب المتحجرة القاسية العقيمة ، والتى لم تزل حبيسة ضلال الكفر وليها الشيطان يضلها ويسوقها إلى غياب الموت ، وتأبى إلا عدم السمع والطاعة والخضوع لسلطان رب غريب** » .

ولو تساءلنا: ماذا تُرى لو أن مسار التاريخ كان غير الذى حدث كما عهدنا ؟ أفَكُنا نرى أوروپا أفضل أو أسوء ؟ أسعد أو أشقى من أوربا التى نعرف ؟ فإننا لا نستطيع

القطع برد يقينى ! اللهم إلا القطع بأنه لو كان مسار الأحداث قد تغير ، لكانت أوروبا اليوم قارة أخرى غير التى نعرف .

ورغم أن التاريخ لا يسجل باعتبار « لو كان كذا لكان كذا » وإنما يقوم على الوقائع الثابتة ! بالرغم من هذا فإن المؤرخين دأبوا على طرح هذا السؤال الافتراضى كلما عن لهم ذلك ؛ ثم راحوا هم أنفسهم يجيبون عليه إجابة متحيزة تحكمها وجهة نظرهم النصرانية ـ الغربية فى كلمة سائرة فاصلة جازمة جزما يقينا لا يعرف الشك ؛ ودون تقديم أية براهين ؛ ولهذا السبب عينه فإن الحاجة ماسّة أن يعُيد أولئك النظر من جديد فى حكمهم .

ولا يخلو أى مؤلفّ تاريخى من التأكيد على أهمية تلك المعركة التى زعموا أنها كانت « المعركة الحاسمة » التى « أنقذت الغرب النصرانى » و « الحضارة النصرانية بقيمها ومُثُلها » ـ مع أن النصرانية الغربية وقتئذ لم يكن لها أى وجود ؛ والتى ـ على العكس من كل ذلك ـ لم تفتقر إلى العنف الرهيب إبان عصور التبشير وبعد التبشير ـ والزعم بأن تلك المعركة الحاسمة هى التى « حمت النصرانية من إبادة الإسلام لها » وأنها هى التى ـ كما يزعمون ـ « قد صانت تلك الرقعة كلها (أى القارة الأوروبية) من التحول إلى قارة شرقية سامية » وأنها هى التى حفظت الحضارة الأوروبية وأنقذتها من الاندثار والفناء .

على النقيض من ذلك ، لم يشغل أحد باله بالعواقب الحتمية للتنصير ، حيث أجبرت الشعوب أفواجا على التعميد واعتناق النصرانية كرها ، أما الآلاف المؤلفة التى أبت التنصير فقد ذبحت ذبحا ولم يهتم أحد بهذا الخرق الوحشى لحقوق الإنسان وما تم من اغتصابات نفسيه وجسدية لمحو الديانات الذاتية الحية من رؤوس السكان الأصليين وغرس ديانة غريبة عنهم بدلا من ديانتهم التى شبوا عليها .

ومن ذا الذى التفت من أولئك المؤرخين إلى أن رسالة روما التى بشر بها المبعوث البابوى « بونيفاتيوس » إنما حتمت الصبغة « الشرقية » للغرب من خلال قولها بالثنائية الغريبة على الغرب [1] ؛ كذلك فإنها هى التى سعت إلى « التهويد السامى » لصورة الإنسان الآثم والاعتقاد بأنه ضعيف لا نجاة له إلا بتخليص المخلص له ، مَن من أولئك المؤرخين ،

١ ـ وهل اليهودية والمسيحية إلا من الشرق السامى ؟ .

الذين احتفوا واحتفلوا بانتصار « القيم النصرانية وكرامة الإنسان » في الصراع المفترض أنه تم بين العالمين الإسلامى والغربى النصرانى تراه يدرى كم دمعة ذرفتها المرأة كل يوم مستذلة مستضعفة وقد حملتها النصرانية وزر الخطيئة الأصلية وجعلتها أم المعصية ، وألزمتها الخضوع للرجل سيدها ؛ فصارت هدفا لصفعاته على امتداد خمسة عشر قرنا من الدموع ؟

من منهم يدرى كم ألفا من النساء حرقتهم الكنيسة أحياء على أعين الملأ فوق كومة الخشب المنصوبة للحرق بزعم أنهن ساحرات ؟ بل من يستطيع حتى يومنا هذا أن يحدس عدد المؤمنين والمؤمنات ممن تعمقوا البحث فى الدين ، وانتهوا إلى ما اطمأنوا إليه من يقين ؛ فُطوردوا وأوذوا أو قتلوا ؟ وقل مثل ذلك فيمن قتل من الدارسين والعلماء الذين نبهوا إلى ما فى الإنجيل من اختلاف وتناقض ؛ وكم عدد أولئك الذين ذبحوا وسفكت دماؤهم فى الحروب الدينية لكونهم يدينون بدين مخالف ؟ (١)

وأى مدى للكره والتأليب الذى جعل النصارى يعتقدون أن اضطهادهم لليهود إنما هو أخذ بالثأر لصلب عيسى ؟

ولا مراء أن تاريخ الغرب نفسه يثبت البراهين العكسية الدامغة التى تدحض وتفند التشويهات التى ألصقت بالإسلام زورا ؛ والتى تحفل بها كتب التاريخ ، حيث تسم الإسلام ظلما وعدوانا بأنه يشكل خطرا يتهدد البشرية ، والحضارة الإنسانية : وحسبك مثال واحد فريد نوعه إبان تلك العصور لتنفيذ تلك التخرصات ؛ ولك أن تقول الوجه المشرق لتلك الميدالية الحالكة السواد ، والذى أشرق على البشرية حقبة مباركة لم تكن بالقصيرة ، وإنما قرابة ثمانية قرون : نعنى إسپانيا !

البرهان العكسى : إسپانيا العربية

إن إسپانيا تحت حكم العرب مثال يبين أنه - بينما كانت أوروبا الكاثوليكية دون جبال البرانس تقضى قضاءا مبرما على كل دين آخر يجرؤ على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكى « بصفته الدين الأوحد للخلاص » وذلك باتباعها سياسة التفرقة الصارمة إزاء غير النصارى - نرى أن النصرانية لم تُستأصل ولم تَضِعْ تحت حكم العرب لإسپانيا والذى دام قرابة ثمانمئة عام .

---

١ - بل كم من الآف البروتستانت الذين ذبحهم الكاثوليك ، ثم كم من الآلاف انتقم البروتستانت بذبحهم من الكاثوليك ؟ .

ومثال إسپانيا هذا يبين فى الوقت نفسه كذلك أن اليهودية ـ والتى دأبت الكنيسة النصرانية على تحميلها وزر موت المسيح ؛ ولا تزال كذلك منذ شن الحروب الصليبية ، تتعرض من قبل النصارى بلا انقطاع لأقسى صنوف الاضطهاد ـ تمتعت فى ظلال الحكم العربى ـ بصفة اليهود ذميين من أهل الكتاب ـ لأول مرة بعد الشتات بمطلق الحرية ؛ إلى أن استعادت النصرانية الحكم فى إسپانيا فطردت اليهود منها .

فوق هذا كله ، يبين مثال إسپانيا هذا أن تلك البلاد التى كانت قبل الحكم العربى تتسم بالفقر والخراب والاستعباد ، قد استحالت بعد قرنين فحسب من الحكم العربى إلى إسپانيا أخرى ، رفرف الرخاء والثراء على كل ساكنيها ؛ وتميزت بارتفاع مستوى كل طبقات الشعب وازدهار الحضارة والتمدن فيها وتقدمها فى كافة العلوم والفنون ، فصار لها السبق والريادة فى أوروپا ؛ وذلك بسبب موقف الكنيسة المعادى للفكر؛ وأمست إسپانيا العربية أسوة بها يُقتدى ، ومنارا به فى شتى المجالات يهتدى ؛ واستمر ذلك خمسمائة عام ، كما هو ثابت تاريخيا بلا جدال ؛ إلى أن زحفت إسپانيا النصرانية من الخارج فقوضت كل ذلك وحطمته حطما .

إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذى نما وترعرع فى ثرى تلك القارة تحت ظل الحضارة العربية الفريدة كان له أبلغ الأثر فى ازدهار إسپانيا العربية ـ على العكس من اضطهاد « إيزيدورس » لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين ـ قد سمح لضروب الفكر على تباين المفكرين واختلافهم أن تتلاقح وتثمر فى تساوق سام ، وانسجام تام ؛ دون أن يدب إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها : لا فرق بين العرب والقوط ، والبربر والمصريين ، واليهود والسوريين ، وسكان إيبريا والفرس ، ولقد انسحب ذلك على المسلمين ـ وقد كانوا الأغلبية ـ وعلى غيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين .

إن تلك السماحة التى يراها الإسلام شيئا مفهوما بداهة ؛ جعلته يرتضى ويتقبل وجود النصرانية مطلقا؛ الأمر الذى بدا لبعض النصارى غريبا ، وبالتالى استثارهم للإتيان بأفعال دافعها التعصب طلبًا للاستشهاد :

هكذا يسجل التاريخ قصة شاب نصراني من هؤلاء ، كان يعمل كاتبا فى بلاط

الخليفة فى قرطبة ، ثم قرر أن يلتحق بأحد الأديرة ، ثم طلب إلى قاضى القضاة أن يأذن له بالمثول بين يديه ، زاعما أنه راهب يبغى الدخول فى الإسلام ؛ فأذن له ، وبدون تمهيد ؛ ابتدر ذلك الراهب الشاب قاضى القضاة بالنيل من الإسلام سابّا إياه سبّا قبيحا ؛ ناعتا نبيه بأنه كذاب لئيم وأنه فى الجحيم ؛ وعبثا حاول قاضى القضاة السليم الطوية أن ينقذ ذلك الشاب المتعصب بصرفه عن المضى فى سبه وتجديفه حتى لا يعاقب بالقتل ؛ ولم يكن الشاب النصرانى ليتخيل إطلاقا أن قاضيا مسلما يسعى لإنقاذ حياة غير المسلم .

أما الخليفة الحكيم فقد دعا إلى عقد مؤتمر للأساقفة النصارى طالبا إليه أن يصدر قراره بأن تعتبر أمثال تلك الاستفزازات والتحديات المتعمدة طلبا للقتل كأنه شهادة طبقا لبدعة شاعت آنذاك ـ مجرد تحمس طائش لا يعاقب عليه .

إن تلك الحضارة الزاهرة التى غمرت بأشعتها أوروبا عدة قرون تجعلنا نعجب أشد العجب ؛ إذ هى لم تكن امتدادا حضاريا لبقايا حضارات غابرة أو لهياكل حضارة محلية على قدر من الأهمية ، أو أخذا لنمط حضارى موجود ، أو تقليدا ينسج على مثاله المعهود ؛ كما نعرف فى الأقطار الأخرى مهد الحضارات فى الشرق .

على أن التربة التى فوقها نمت أغصان الحضارة وبراعمها فجأة تحت حكم العرب ، أقفرت ، وظلت عقيما استشرى فيها الجدب ولم تتعهدها بالرعاية منذ ذلك الحين قوى حضارية خلاقة تذكر .

إن العرب هم الذين أبدعوا إبداعا ، يكاد يكون من العدم ، هذه الروعة الحضارية الشامخة فى إسپانيا تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار ، والمغنين والمغنيات ، والشعراء والشاعرات ، والعلماء ؛ بل جنة المرأة ، التى نسج الغرب حولها صورا خيالية شيطانية غاية فى الوحشية ؛ دون أن يكون له أدنى معرفة أو حتى إلهام طفيف ضحل بها .

إن هذا الازدهار الراقى لفن المعمار فى قرطبة وطليطلة وغرناطة وإشبيلية ، قد طورته الطاقة الخلاقة لذلك الشعب العربى فأتت بأفضل الثمار فى جميع حقول الأندلس .

ولا ينسحب هذا على الحقول التى لم تكن تعرف قبل العرب سوى النزر اليسير من

الزراعة فحسب ؛ وإنما ينسحب كذلك على التربة القاحلة الجدباء ، والهضاب الصلدة العارية من الزرع ، فقد استصلحها العرب بفضل خبرتهم الطويلة على مر القرون في حفر الآبار وأنظمة الرى بالنواعير أو السواقى الضخمة ، وإقامة السدود العملاقة ، وتجهيزات رش الحقول بالرذاذ وقنوات الرى ، حتى اخضرت الأرض سهولا ومصاطب وهضابا ، وأقاموا عليها جنات وحدائق ، فيها من كل الثمرات ، فى وفرة جاوزت احتياجاتهم ، تحوطها حقول القمح التى كانت تغل فى الحول ثلاثة محاصيل أو أربعة . ثم إنهم حملوا كذلك من المشرق خبرتهم فى الرعى وتربية الماشية والخيل والبغال والبقر ، بل إنهم كانوا كذلك أول من استعمل التلقيح لتحسين السلالات . ومدوا طرقهم التجارية فى المشرق عن طريق بغداد أو الإسكندرية ، ثم إلى الشرق الأقصى . ولقد كانت تلك الطرق شبكة شهدت قوافل التجارة التى حملت العطور والتوابل والبخور والمواد الاستهلاكيه الكمالية ، والمواد الخام والوفود الرسمية وغير الرسمية والبريد وغير ذلك ، كما شهدت مبعوثى أمير الأندلس الحكم [1] الواسع الثقافة ، حيث جدوا بتكليف منه فى طلب مؤلفات المشاهير وأحدث مخطوطاتهم فى أهم مراكز العلوم وعواصم الثقافة ، حريصين على اقتنائها ودفع ثمنها حتى قبل أن يفرغ مؤلفوها من إتمامها ؛ وكانت تلك المؤلفات تحمل بعد ذلك إلى قرطبة حيث يقوم حذقة النساخ بنسخ العدد المطلوب منها ؛ فيوضع بعضه فى أرفف المساجد والمدارس ، ويودع البعض فى المكتبات العامة ـ وكان فى قرطبة وحدها أكثر من عشرين مكتبة عامة ـ ويعرض البعض للبيع لدى الوراقين فى سوق الكتب .

والجدير بالذكر أن الكتب آنذاك كانت نادرة الوجود شمالى جبال البرانس حتى إنها كانت فى الأديرة تثبت بالسلاسل ، بينما ذهب رجال الدين النصارى آنذاك إلى أن طلب العلم والمعرفة بعد ما أنزل الإنجيل تجديف وكفر بالله ؛ « مثلما زعم من قبل ترتوليان وأغسطين اللذان لعنا حب الاستطلاع أو الفضول المريض » واصفين إياه بأنه « واحدة من أخطر صور الوسوسة والضلال » مما يسلم الفضولى إلى الملاحقة والتعذيب .

أما ذيوع صيت جامعات إسبانيا العربية وعلو كعبها فى المعارف ، فقد جذب إليها

١- لعل المؤلفة تعنى الحكم الأول الذى تولى الخلافة فى قرطبة من ٧٩٦ إلى ٨٢٢ ـ المترجم .

صفوة الباحثين المبرزين فى العلوم والفنون والمعارف والآداب ، والمهتمين بذلك من الوسط نفسه ؛ فالتقوا جميعا فى رحاب جامعات الأندلس . وتكشف الترجمات اللاتينية المتأخرة لمؤلفات بعضهم ، والتى أنجزتها مدرسة طليطلة للترجمة ، والشهيرة على الصعيد العالمى ذلك الثراء الفكرى العريض ، المرتبط بأسماء الأعلام العالميين فى مختلف الميادين ؛ ومنهم أبو القاسم وابن زهر وابن رشد وابن طفيل وأبومروان وابن الخطيب والبطرجى وابن البيطار وابن فرناس وابن خلدون وعلى الرجال وجابر بن أفلح وغيرهم من الأعلام الذين أثروا الغرب الذى أعوزه آنذاك مثل هؤلاء العلماء ونفخوا فيه من روحهم ، وأمدوه بطاقات دفعته قدما .

كما نجد بعض المغنيين الذين جابت شهرتهم آفاق المشرق العربى يشدون الرحال إلى بلاط الخليفة فى قرطبة ، شأن المطرب الموسيقار « زرياب » الذى انتهى إليه فن الطرب والموسيقى حذقا وبراعة وظرفا ، فكان نابهة عصره ووحيد دهره ، كوكبا ساطعا فى سماء الحياة الاجتماعية ، فاضطلع بشئون التربية الفنية الموسيقية للبلاط والطبقة الراقية ، متربعا على عرش الطرب فى الأندلس .

إن فن الغناء العربى الذى عرفه من قبل المشرق العربى فى مكة ودمشق والبصرة وبغداد ، حيث حظى مع الشعر العربى بمكانة سامقة وازدهر أيما ازدهار ، كان يختنق رتابة بعد مأساة الاكتساح المغولى الذى زحم سحر التقسيم الصوتى السورى ـ الفيثاغورى ، وأحل مكانه رتابة مملة ؛ إلى أن يبعث من جديد بعثا عجيبا فى الأندلس :

فهنا فى اسبانيا العربية تدفقت ينابيع الموسيقى المصطبغة بالطابع الأندلسى بماحفل به من مميزات فى الإيقاع واللحن والنغم فى اتساق متكامل مع الوزن والقافية فى الموشحات وغيرها من فنون الشعر الغنائى المتميز بخصائص ومقومات أصلية ، لها سحرها الفريد ؛ ولقد فاضت تلك الينابيع فيضا غير مألوف كما لو كانت الموسيقى والشعر وسيلة التعبير المعتادة للأندلسى . لقد غدا طرب الأندلسى وولعه بالبلاغة والرشاقة فى التعبير ، مولعا بما قل ودل ، والتوسل ببحور الشعر المجزوءة والقافية المناسبة لها ؛ سالبا لبُه ، مالكا عليه مشاعره علُواً وحفظا ، وكفى بذلك ضامنا لتوفير المجال الأدبى والفنى للمسامرات والمسرات .

ولا شك أن شعر الفروسية والغزل من أنضج الفنون التى حفل بها ذلك الحقل

العريض الثراء للحضارة العربية وفن الشعر ، الذى كان منذ العصر الجاهلى يحتل مكانة سامقة لدى القبائل العربية ، والذى لا يزال حتى اليوم لدى قبائل « الطوارق » ينمو على سوقه مزدهرا ، والذى حظى من قبل بمنزلة خاصة فى كنف الخاصة من الأمراء وبلاط بعض الخلفاء ، خاصة فى بغداد .

والأساس فى أشعار الفروسية والغزل ، هو العلاقة العربية المميزة بين الرجل والمرأة ؛ وسوف نعالج هذه النقطة فى الفصل القادم ؛ وذلك إبان حديثنا عن المرأة العربية .

على أن ما كان يبدو مستحيل الوقوع ، وقع بالفعل فيما بعد كما لو كان ذلك يقظة الغرب فى سكون ، من سبات عميق بلغ عدة قرون : فقد راح شعر الغزل العربى الذى شب فى الريف يستحوذ على الحياة الأدبية فى البلاط وفى مجالس النبلاء . فأمست فى « قبضة الأسر » ، الذى وسم ذلك العصر ؛ واحتل بسحره ممالك أخرى فدارت فى فلكه ، انطلاقا من شمال فرنسا إلى جنوب ألمانيا ثم النمسا ؛ وهكذا كان « انتقام » الأندلس ردا على الهزيمة فى بواتيه !

أجل فهنا حيث هزم شارل مارتل وجيوشهُ المسلمين ساكنى الخيام ، انتصر بعد مرور ٣٣٣ ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين عاما هذا الفن الساحر الذى أبدعته القريحة العربية : فن الغزل ؛ لا سيما بعد أن رجع دوق أقيطينا وكونت بواتيه عام ١٠٦٥ من حملة البابا الصليبية على باربسترو الحصن الحدودى الحصين للمسلمين بجيش من السبايا العربيات ، مغنيات وراقصات .

لا عجب إذن أن يشب ابنه الدوق ويليام التاسع كونت بواتيه وقد ألف منذ نعومة أظفاره التقاسيم الموسيقية على العود ، توقعها القيان ، وقصائد الغزل فى الحسان ، بل إنه أصهر مرارا إلى كرائم البيوتات العربية ، وذاع صيته بصفته واحداً من أعظم رجالات البلاط ، وأكبر مشاهير العشاق « وأنه فارس يجندل الأبطال ، وأنه يبذل فى سبيل المعشوقة كل مرتخص وغال » .

كان ويليام التاسع إذن أول صريع أسره الروحُ العربى ، فكان بذلك أول شاعر غزل ، وقف شعره على الغوانى ؛ فاتحا الباب أمام شعراء التروبادور ، الذين اقتفوا أثره فتألق منهم تاج كامل ، أو عقد متكامل ، انتظم شعراء الغزل وكذلك المغنين

والمغنيات الذين احتفلوا بهذا الفن بصفته فنا اجتماعيا راقيا احتفى به البلاط رسميا .

إن الغزل العفيف الذى قدره العربى حق قدره آخذا إياه مأخذ الجد ، قد انقلب فى أوروبا إلى تقليعة (موضة) عمت العصر ، صار الغزل فيها مباريات ، وصولات وجولات تحكمها أصول وقواعد متعارف عليها ، مثلا تأكيد العاشق بأنه طوع أمر المعشوق : « إننى ملكك ؛ يا سيدتى خادم فى كل حين مستعد » .

كذلك حنينه الملتهب أبدا :

« عبدها الراكع يرجو وصلها   ورضاها ويراها تستبد »

وإذا كانت الكنيسة ومن يدين بدينها قد حملت الزوجة وزر الخطيئة الأصلية بصفتها ابنة حواء التى غوت وأغوت آدم ، ففرضت عليها أن تكون خادمة مطيعة للزوج طاعة عمياء ، وجعلته سيدها ،تخضع لإرادته وتمتثل أوامره ونواهيه ؛ فإنها قد برزت الآن فى دور جديد فى البلاط معبودة الفارس ، الذى يركع أمامها فى خضوع ، منزلا نفسه منزلة الخادم المستسلم لمشيئتها ، طامعا أن تطل عليه من عليائها ، بينما تضن هى عليه بعطفها ، وتبخل بوصلها .

ولا ريب فى أن هذا النمط المحتذى فى الغزل ، لم يبرز على الساحة فى ثوبه الأصلى العربى مباشرة ، وانما اصطبغ بملامح الريف الفرنسى ، عاكسا المبالغات المقوتة المتكلفة التى أثقلت تلك البدعة (التقليعة أو الموضة) الطافحة ؛ مما أثار كثيرا من النقد والازدراء والتأفف والاستياء .

وتمثل مشاعرها بمشاركته إياها وجدانيا - أو حتى رفضه إياها - فتوفرت بذلك كله أبعاد لم تكن معروفة من قبل فى طبيعة الألمانى بحيث صار يضرب على أوتار حلقت به فى آفاق جديدة ؛ وفى هذا تجلى النموذج العربى فى الولاء والوفاء ، والامتثال للأسمى والتطلع فى إكبار وحب ، وتجسد فى الطهر والقوى المتسامية المحررة ؛ ذات الأصالة المميزة والعمق البعيد ، وذلك فى مثالية ألمانية صادقة لها مميزاتها الخلقية الفارقة .

لقد كان الأمر يبدو كما لو أن شخصية المرأة الجرمانية العظيمة المشدوهة فزعا ، والتى عانت أقسى الآلام والإذلال ، خاصة وقبل كل شئ بسبب مقت المرأة الذى مكّن له الإنجيل وألح عليه الرهبان ، قد آن لها أن تستعيد كرامتها ، وذلك إذ صار تمجيد المرأة فى الأدب والفكر ، المنقذ لها .

وبدا الأمر كما لو أن الوعى الذاتى ، الذى لم يلفظ أنفاسه تماما ـ رغم كل وسائل القمع والكبت الكنسية ـ قد فطن إلى أن المرأة « شيئا مقدسا مستقرا ، وذلك بفضل تمكن جذورها الضاربة فى أعمق أعماق الكون » كما قال تاكيتوس [1] وكما لو أنها تفزع تلتمس الحب النقى الرائع ، المحلق فى آفاق روحية ، سخية بحبها للمحبوب الذى يرعى حبها فى وفاء ويقوم على خدمتها فى ولاء .

هذا الولاء القائم على الحب سما بالرجل ، وجعل المرأة تمسى تجسيدا فعليا ، مُوصِّلا للقيم الخالدة ، التى تشد الرجل إليها جذبا ، كما قصد ذلك « جوته » قصدا فى ختام مسرحيته (فاوست) : على لسان بطلها الدكتور فاوست « ذلك الخلود فى الأنثى هو الذى يشدنا إليها » .

هنا يتضح جليا أن المحاكاة البحتة لنماذج مغايرة تتمخض عن مشاكل إنسانية مختلفة ، فهى قد تكون ذات جدوى فقط حين تُكتَسب متفقة مع قانون الجوهر الذاتى .

إن العلاقة بين الرجل والمرأة تبين كما رأينا ـ بصورة أشد منها فى أى مجال آخر ـ أن أنماط السلوك المختلفة لا يمكن تعميمها على كافة الأمزجة المغايرة ، وأن ذلك إنما يفضى إلى تزييف الجوهر . ويتضح ـ كما سوف نرى على الصفحات التالية ـ أن مفاهيمنا لها معانى مغايرة لدى غيرنا من الأقوام والشعوب ، وأن ذلك يستتبع بالضرورة خطأنا فى فهمها فهما مخالفا للواقع ، مما يسهم فى وقوع أخطاء فادحة نتيجة سوء الفهم ، وشيوع الأحكام المسبقة الظالمة ، مثال ذلك مفهوم « السمع والطاعة » .

---

١ – المقصود بوبليوس كورنيليوس تاكيتوس (٥٥ ـ ١٢٠ م) وكان ذا تأثير كبير فى فرنسا فى القرن ١٧ خاصة على راسين فى مؤلفه (بريتا نيكوس) وعلى كورنى فى مؤلفه (أوثون) ـ المترجم .

الفصـــل الرابـــع

المرأة مضطهدة تسام الخسف فى الإسلام ؟

اعتـاد الأوروبى أن يتخيل المرأة فى الإسـلام على أنها إحدى زوجـات أربـع قابعـة خلف قضبان الحريـم (الحرملك !) مصـونة عن نظـرات الرجـال فـى جـو مختنـق ، وحياة سـادرة لا هـم لهـا فيهـا سـوى الاشتغال باللاشـىء ، والقيل والقـال ، والغيرة المستمـرة مـن ضـراتها الأخـريـات . أجـل ، هكذا يتخيـل الغربـى النسـاء المسلمـات اللاتى لا يجوز أن يخرجن من الحرملك أو سجن الحريم غير محجبات فلا تبدو سوى أعينهن ؛ فهن لم يخلقن إلا لإشباع رغبات الرجل وفقا لمزاجه ، وهن كائنات بلا روح ، محرومات من كافة الحقوق ، ينتظرن فى بيوت آبائهن سلعة يشتريهـا القـادر علـى الشراء .

والحق أن الإسلام برىء من كل هذا : من ذلك النقاب التام ومن تعدد الحريم على ذلك النحو ، ومن هضم حقوق المرأة ومن الامتهان المزعوم لكرامة المرأة ؛ فضلا عن تلك النظرية الباطلة من أساسها ، والتى تدعى أن المرأة كائن بلا روح فى الإسلام !

وليس فى القرآن ولا السنة ما يشير إلى أن الإسلام أوصى بهذا ؛ أجل علينا أن نتساءل ما الذى يمكن أن يكون صحيحا فى هذا الادعاء إطلاقا ، وما الذى لا يصح ؟

إن القـرآن الكريـم بصفتـه الدستـور الإلهـى الـذى ينـص علـى التشريعـات والحدود المنظمـة لكافة المجـالات الدينيـة والدنيـوية ، الشخصيـة والعـامـة ؛ إنما يـؤكـد أنـه لا فـرق بيـن الذكـر والأنثـى ،لا فـى الجوهـر ولا فـى التكـريـم ، وسـاوى بينهمـا مسـاواة تامـة فـى كافـة العبـادات وأمـور العقيـدة ، وفـى النـاحيـة الخلقيـة الإنسـانيـة البحتـة كمـا فـى الأمـور المـاليـة المـاديـة والاجتمـاعيـة ، بـل إن أجـر المـرأة مسـاو لأجـر

الرجل [1] : ﴿ .. ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .. ﴾ البقرة : ٢٢٨

على أن تتمة الآية (٢٢٨ من سورة البقرة) تبدو لنا وكأنها نقضت نقضا كل ما يقال عن المساواة بين الذكر والأنثى : « وللرجال عليهن درجة » ؛ فعلى المرأة إذن أن تطيع الرجل ... ولا شك أن العربى لا يجد أى تناقض أو تعارض هنا ؛ ذلك أن هذه الدرجة لا تعنى بحال تفضيلا خلقيا ، بمعنى سمو الرجل مكانة عن المرأة ، الأمر المغاير لمعنى الطاعة ومبررها لدى « يَهوَ » وبولس الرسول والقديس توماس ومارتن لوثر [2] ؛ إذ إن طاعة المرأة لديهم جميعا تعنى العقاب الإلهى للمرأة لارتكابها الخطيئة الأصلية الأولى ، لأن حواء لديهم غوت وأغوت آدم ، فالمرأة فى القرآن ليست أم الخطيئة الأصلية ، وليست هى التى وسوست لآدم ، وإنما وسوست الحيّة لهما كليهما [3] ، ولم يجعل الإسلام تلك الخطيئة وراثية .

وإن الجنسين متكافئان خلقا نفخ الله فيهما الروح ، والروح لا تموت ؛ وعلى الرغم من كونهما مخلوقان من نفس واحدة ، وأنه لا فرق بينهما ، فإن بينهما ولا شك فارقا فاصلا ، هو مجال توتر .

---

١ ـ فيما يلى بعض الآيات والأحاديث التى تبين ذلك ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ الآية ١٢٤ ـ سورة النساء

﴿ **يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ الآية ١٣ ـ سورة الحجرات .

« إنما النساء شقائق الرجال » رواه ابو داود واحمد .

٢ ـ ننقل هنا عن الترجمة العربية للكتاب المقدس ط ١٩٧٧ · سفر التكوين ، الإصحاح ٣ : ١٣ ـ ١٦ « فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت .. تكثيرا أكثر أتعاب حبلك .بالوجع تلدين أولادا . وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك .. » ، وتؤكد خطيئة المرأة فى الإنجيل وعدم مساواتها بالرجل مواضع أخرى منها . رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح ٢ : ١١ – ١٥ « لتتعلم المرأة بسكوت فى كل خضوع . ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون فى سكوت ، لأن آدم جبل أولا ثم حواء . وآدم لم يُغو ، لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى ، ولكنها ستخلص بولادة الأولاد ، إن ثبتن فى الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل » ؛ ومن رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس : الإصحاح الخامس : ٢٢ ـ ٢٥ « أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب . لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة . وهو مخلص الجسد . ولكن كما تضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء ... »

ويلح الإنجيل على جعل المرأة أصل الخطيئة . بل إن سفر التكوين يزعم فى الإصحاح السادس أن الملائكة من أبناء الرب (!) تزوجوا ببنات البشر فولدن لهم الجبابرة ، فحق على نسلهم الموت لأنهم من الزنا · « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا : فقال الرب : لايدين روحى فى الإنسان إلى الأبد لزيغانه : هو بشر وتكون أيامه مئه وعشرين سنة .. هؤلاء هم الجبابرة » ١ ـ ٤ ـ المترجم .

٣ – نص القرآن على أن الشيطان وسوس لآدم وزوجه ، وإذا كان الرجال قوامون على النساء ، فمسئولية آدم عن الخروج من الجنة أكبر من مسئولية حواء .

كما أن ذلك موجود بين الله وبين الإنسان . وينسحب على كافة الأديان والأجناس أمر مشترك ؛ ألا وهو كون العلاقة بين الجنسين ذات أصل ميتافيزيقي كامن في الكينونة المجتمعة للإنسان ، مرتبط ارتباطا لايمكن فصله عن علاقته بالكون من حوله وبالقضاء والقدر وبالله . لهذا فإن بنية العلاقة الكائنة منذ الأزل بين الرجل و المرأة في كل الديانات ـ إنما تتحدد في ضوء هذه العلاقة مع مفهوم الإنسان للربوبية ومعرفته بالجانب الإلهي كما خَبِرَهُ هُو .

وكلمة الإسلام تعني لغة الامتثال لقضاء الله في خضوع واستسلام ، والسلام أيضا صفة تميز السلوك بين الجنسين : ففي تعاملهما فيما بينهما تخضع هذه العلاقة للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء ولاتعني تلك « الطاعة » عبئا ينوء المرء تحته معانيا : بل إن المرء يتمتع بخضوعه هنا ، دون الحط من قدره ، بل إنه ليبلغ بخضوعه أسمى الدرجات ، سواء في عبوديته لله ، أو في حبِّه من يحب .

تلك (الطاعة) نعمة يُمَنُّ بها على من يتلقاها ـ للخاضع الموعود ، فهي كما تقول إحدى الأغنيات : « بهجة وسلطان ثان » ؛ وهذا الدور ـ دور الخاضع المتثل ـ يتناوب الطرفان أداءه : ففي قيام الرجل بدور العاشق الساعي إلى كسب رضا الحبيبة لا يستنكف أن يخضع على عتبة الحب دون الحبيبة على ركبتيه ، عبدا مطيعا أمرها ، وفي الحياة الزوجية ، التي يهتم القرآن بها إهتماما رئيسياً ، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها ، وذلك أن كبرياءها تأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجابا وتقديرًا ، وخلافاً لما ورد في بعض نصوص العهد القديم ـ من الصراع الأزلي بين آدم وحواء ، والذي يتحول فيما بعد إلى كراهية للمرأة لاتفتأ في التصاعد في أسفار العهد الجديد والكتابات الكنسية المعتد بها بدءا من رسائل بولس الرسول إلى طرطوليّان وكريسوستومس إلى بطرس الدمياني ، وهي كراهية يتوارى في ظلها تضاؤلا مايرد في (هكس همر) [1] نجد الإسلام لايصف المرأة بأنها أصل الخطيئة ولايعرف ذلك الصراع بين الجنسين لافي الحياة الزوجية ولا في الحياة العامة ، بل إن العكس هو الصحيح ، إذ يُذكِّر القرآن المؤمنين ـ كما يرد في

---

١ – « المطرقة التي تهشم الساحرات » ، وقد ألفه عام ١٤٨٧ شبر نجر وإنستيتوريس ، إبان عهد البابا انوسينس الثامن الذي أمر يحرق النساء الرافضات السخف الكنسي ، ولم يكن ذلك البابا الشاب سوى زير نساء مشهور ، احتفل بعرس ابنه في الفاتيكان رسميا ...ـ المترجم .

سورة الروم الآية الحادية والعشرين ـ بما جعل بين الأزواج من مودة ورحمة ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ..** ﴾ وقبل موته أوصى محمد بالنساء خيرا ، كما فى أكثر من حديث منها : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا .. وإن لنسائكم عليكم حقا » [١] كما أنه أوصى بالأمهات أكثر من وصيته بالآباء [٢] ، وأن « الجنة تحت أقدامها »

كما أن القرآن ألح على المسئولية الخاصة والعطف والرقة والرعاية تجاه البنات الصغيرات خاصة ، محرما ما كان شائعا فى الجاهلية من وأد البنات [٣]

وساوى بينهم وبين الذكور فى التربية ، وبين ضرورة تعلم الجنسين « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، « النساء شقائق الرجال » .

ثمة تصور آخر خاطىء يشغل بال الأوروبى ويستبد به مجاوزا كل حد وقصد ، على استثارته للطعن فى خلقيّات الإسلام : ذلك هو إباحة الإسلام تعدد الزوجات .

ولقد أباح النبى [٤] ذلك بعد قتل كثيرين من المسلمين فى يوم أحد فكان ذلك هو أمثل حل لرعاية الأيامى والثكلى واليتامى وقصر ذلك على أربع زوجات ، ضرورة حتمتها الظروف الاجتماعية ، مشروطة بشروط ، تؤكد على مسئولية الرجل فى العدل بينهن ؛

---

١ – جاء فى ذلك أحاديث كثيرة صحيحة ، منها : « خيركم خيركم لأهله » ، « كفى بالمرء إثما أن يضيع أهله » « إبدأ بمن تعول »، « رفقاً بالقوارير » .

٢– لعل المؤلفة تعنى الحديث الصحيح المشهور من رواية أبى هريرة رضى الله عنه : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن بصحبتى ؟ قال : « أمك » ، قال ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك ». ـ المترجم .

٣ – لم يحرم الإسلام قتل الأولاد فحسب ، وإنما أمر بحسن تربيتهم وحبهم وملاطفتهم ، ولقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم « قبل الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقال الأقرع بن حابس : إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لايرحم لا يُرحم » ـ المترجم .

٤ – ليس النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أباح تعدد الزوجات ، فقد كان ذلك مباحاً ـ وبدون أى تحديد فى اليهودية والمسيحية ـ ولا يخفى على أحد ما جاء فى العهد القديم من زوجات لأنبياء الله : ليعقوب أربع ، والعشرات لداود وسليمان ، وأى تحديد لعدد الزوجات فى الغرب فهو مدنى لا يستند على أى أساس دينى من العهد القديم ولا الجديد ، وما زال مباح حتى الآن لطائفة المسيحيين المورمون فى أمريكا .

وجاء القرآن لأول مرة فى تاريخ البشرية بتحديد عدد الزوجات ، وأباح هذا التعدد بشروط ذكرتها المؤلفة . ولا يفوتنا هنا توضيح أن الإسلام يفرض الزواج على الذكور القادرين ، وعلى الدولة مساعدة من تمنعه إمكانياته المحدودة ، فإذا تم هذا وبقى هناك من النساء من لا يجدن أزواجاً ـ بسبب الحروب أو طول عمر النساء عن الرجال ، أو كثرة عدد المساجين من الرجال وما إلى ذلك ـ ..... ـ فهنا يظهر الحل فى التعدد .

وإلا فلا ، كما تنص الآية الثالثة من النساء :

﴿ .. فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... ﴾ وفى هذا تنبيه كاف للمسلم قبل الإقدام على الأخذ بتلك الرخصة ؛ ثم تؤكد الآية التاسعة والعشرون بعد المئة من السورة نفسها استحالة استطاعة الزوج العدل بينهن : **﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. ﴾**

وفى هذا بيان واضح أن الاقتصار على زوجة واحدة هوالصورة المثلى لتحقيق ماشرع فرضا من حسن معاملة الزوجة وأداء حقوقها فى مودة ورحمة ؛ على أن تعدد الزوجات ليس القاعدة وإنما الاستثناء فى الإسلام فيما عدا مانعرفه من تعدد زوجات الخلفاء والأمراء ..

وإذا كان الرجل وحده يمتلك حق تطليق المرأة ، فإن الشرع أباح للمرأة إمكانيتين : أن تشترط عليه شروطا [1] عند عقد النكاح عصمة لنفسها وضمانا لحقوقها ، كما نص على مهرها صداقها تأمينا لمستقبلها .

هنا يعيش حكم مسبق آخر جائر على الإسلام ، نتيجة نقص المعرفة ، مما يوضح مرة أخرى ، أن الصورة التى ترسمها المخيِّلة الغربية كثيرا ما تختلف عن الأصل ، ففى أوائل القرن السابع الميلادى نجد الصداق إنجازا اجتماعيا جديرا بالتقدير ؛ فيحكم بعضهم جزافا بأن المرأة ليست سوى سلعة ، يدفع الرجل ثمنها .

إن الرجل يؤتى عروسه صداقها ، تتسلم نصفه مقدما ، ولها وحدها الحق المطلق فى التصرف فى صداقها ، أما النصف الآخر أو مؤخر الصداق فيتحتم عليه دفعه فى حالة الطلاق ، وذلك لتأمين وضعها ماديا ، وذلك يقودنا إلى جوهر العلاقة بينهما .

فبينما تنقاد الزوجة لزوجها ، فإنه يتحتم عليه تحمل المسئولية عنها ملتزما بأن يصدقُها مهرها اللائق بمنزلتها الاجتماعية ، لا مكانته هو ، وأن يوفر لها نفقتها وكسوتها وكل ماتقتضيه الحياة الزوجية ؛ ولاشك فى أن ما اصطلح عليه الأوروبيون من

١- من حق المرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا أضر بها اتخاذه زوجة ثانية ، بل حتى بدون زوجة ثانية إذا لم ترض استمرارها معه ، وبالسبب الثانى طلق النبى صلى الله عليه وسلم إحدى الصحابيات ، وكذلك فعل عمر رضى الله عنه ، وفى القرآن خير دليل على ذلك **﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾** فلا يمكن المعاشرة فرضاً ولا كرهاً ، سواء مع زوجة ثانية أو بدونها .

مفاهيم مثل سيادة الرجل وعدم المساواة لا يمكن أن تطبق هنا بحذافيرها وفقا للتصور الغربى ، فذلك مقياس خاطئ ؛ أما الأقرب إلى الصواب فهو أن الرجل والمرأة فى الإسلام يتمتعان بالحقوق نفسها من حيث النوعية ، وإن لم تكن تلك الحقوق هى ذاتها فى كل المجالات .

هكذا نجد نساء النبى أيضا يؤدين دورا مستقلا عظيم الخطر ، وفى مقدمتهن أولى أزواجه على مدى أربعة وعشرين عاما ، الأرملة الثرية خديجة ، فلم تكن أرملة ثرية فحسب ، وإنما كانت مستقلة تدير بيتا تجاريا ضخما ، تروح قوافلها التجارية محملة بالسلع من مكة وإليها ، وتعقد الصفقات مع عواصم التجارة القاصية ، وكانت أول من آمن برسالته وصدق بما جاء به من عند الله تُثَبِّتُه وتواسيه ، وقت أن كاد الشك فى ذاته يساوره . لقد كانت الاجيال الأولى من المسلمات فى القرن الأول الهجرى صورة مطابقة لشخصية المرأة الناضجة الحرة ، المستقلة ، الواثقة بنفسها ، فكُن آنذاك يؤدين دورا رائدا سواء على ساحات المعارك أو فى الحياة العامة ؛ ولقد كان لزوجه عائشة مثلا دور رئيسى فى رواية الحديث والسنة وجمع ذلك وتدوينه .[١]

ونعجب أشد الاعجاب بقصص النساء فى بلاط بنى أمية ، وقد أمعَّن فى الدلال ، وأسر قلوب الرجال ، ورحن يُثِرن حماسهم ليأتوا بأعمال بطولية ، وكان أسمى وسام يطمح إليه أحدهم تقدير المرأة لبطولته ، ولقد حرصن على تلقى العلم ، فبرزن فيه ، وقمن أنفسهن بالتدريس فى المساجد ؛ بل إن من علماء الفقه المشهورين من شجع بعضهن لتولى منصب القضاء ؛ وهكذا شهدت مجالس العلم فقيهات فى حلقات التدريس فى المساجد والمدارس وألقين محاضرات عامة ، وقمن بتفسير قوانين الشريعة والإفتاء ؛ وكان منهن من تولت منصب قاضى القضاة ، وحظيت بالثناء الجم ، ولقبت « بفقيهة الفقيهات » واشتهرت منهن فقيهات ، وعالمات ضليعات فى العقيدة ، وشاعرات ، ولم يجد أحد فى ذلك غرابة ؛ لكن هذا سرعان ماتبدل تماما كما سنرى .

عناصر غريبة تتمثل فى التلثم التام بالحجاب والتسرى بالخطايا

إن التحول الذى استشرى فى بلاط هارون الرشيد ببغداد [٢] كان قد

١- لم يقتصر دور عائشة على الرواية فقط ، فقد كانت من أفقه الصحابة

٢ ـ تولى الخلافة من ٧٨٦م ـ ٨٠٩م وفى عهده استحدث منصب قاضى القضاة ، وتولاه أبو يوسف وألف كتاب الخراج والجزية ـ المترجم .

تسرب تحت التأثير الأجنبي ، عن طريقين هما فارس وبيزنطة ؛ فلئن كانت السيدتان الخيزران وزبيدة - وهما من زوجات الخلفاء اللاتي ولدن أيضا خلفاء - من أخريات من يفخرن بأنهن كرائم يجرى في عروقهن الدم العربي ، فإن الغلبة والسلطان انتقلا تدريجا إلى الحظايا الفارسيات والروميات ، وإلى القيان والمغنيات ، حيث صرن صاحبات الحول والطول في حياة جديدة سادرة ، قائمة على اغتنام الملذات .

هكذا صارت قيان وإماء من العجم فارسيات وبيزنطيات حظايا وسرارى ، تسرى بهن الخلفاء فأنجبن خلفاء ، ومع مقدم هؤلاء انتصر الحجاب واقتناء الحريم في « الحرملك » ونظام الخصيان الطواشي المعروف في بيزنطة النصرانية ، وحياة البلاط ورواسب إذلال المرأة المستقر في نظام الثنائية الفارسية .

وإذا ماعدت التقليعات وأنماط السلوك التي سادت البلاط ، مثلا أو معيارا للأناقة والذوق ، فوجدت سبيلها إلى الحضريات في المدن فشغفن بها تقليدا ، فإنها لم تحظ بإعجاب الحرائر البدويات ، ولا الفلاحات الكادحات ...

وفي نهاية الألف الميلادية ، حيث استحوذت على الخليفة الضعيف المتزمت القادر بالله موجة التزمت الفارسية ، أمر القادر [1] أن تتحجب كل امرأة مهما كان وضعها الاجتماعي ، وان تقر النساء بلا استثناء في بيوتهن (في الحرملك) ، ثم مالبث أن تلاه الحاكم الفاطمي المتشدد [2] الذي أصدر أمره ألا تغادر دارها إلا وإنما في رفقة .

بذا ترسخت تلك العادة غير العربية ، على أن مظانّها الأصلية مذهب الثنائية الفارسي والتي شطرت المجتمع إلى عالم الرجال الخالص وعالم النساء ، فاصلة بينهما فصلا حادا . تلك عُقبى التزمت المتظاهر بالتقوى . الذي أطل برأسه في عصور تقهقر العروبة الصرّاح ، بعد أن شابها ماتسرب إليها من عناصر غريبة ؛ ولقد تغلغل ذلك التزمت روحٌ متنسك لاتربطه أية آصرة بالروح العربي ، فقد كان روحا حلّ قبل ذلك بألف عام بعد الأسر البابلي حلولا مستبدا ثقيلا رزح فوق الشرق الأدنى ، منصبا من شمال شرقي المناطق الجبلية في موجات ، ثم تصاعد التضييق التام على حرية المرأة إبان حكم المغول منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادى ثم سلطنة الأتراك العثمانيين من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ولقد أساء أولئك فهم ، الروح الحقيقية للسنة والتي يُساء حتى يومنا هذا فهمها .

١- تولى القادر بالله الخلافة من ٩٩١ - ١٠٣١ م- المترجم .

٢ - الحاكم بأمر الله الفاطمي من ٩٩٦- ١٠٢٠ م - المترجم .

الإسلام فى الحب

ذلك الروح الذى تغلغل المشرق ، لم يُتح له أن يَمَسَّ بأذاه الأندلس الذى غدا آخر واحة تحتفل بالاعزاز العربى للمرأة ؛ فهب عليه نسيم الروح البدوى الحر الأصيل الذى سبق أن جلبه العرب معهم . لقد أدهشتنا المرأة الأندلسية بحضورها المشارك فى الحياة العامة فى ثقة واعتداد عظيم بالنفس ، ولاينسحب هذا على سيدات المجتمع البارزات فحسب ، وانما على البسيطات بل وعلى الإماء ؛ فقد أسهمن بقسط وافر فى الحياة الفكرية والعلوم والفنون ، ونبغت منهن شاعرات بحن بحبهن فى ثقة بالنفس كالرجل ، وتألق بعضهن مثل ولادة التى أمست دارها ملتقى الأدباء ، وساحة يتبارى فيها كبار الشعراء بل وصغارهم فى الغزل . وذلك طمعا فى الفوز بثناء النساء . وفى دائرة ضوء أولئك النجوم والكواكب ازدهر فن الغزل العربى بما توفرت له من خصائص فارقة مميزة والواقع أن تلك الخصائص مما رسخ فى الطبيعة العربية ، فهى عربية أصيلة يشعر المرء بأنها لحما ودما عربية ، حتى أن مختلف الأشعار التى قلدت الغزل العربى ، كتب عليها أن تظل مجرد نماذج خارجية لا ترقى إلى سحر شعر الغزل العربى ، وحيد نسجه .

لقد انحصر التقليد ، فى قوالب فارغة لا تفيد ؛ ذلك أن موقف المخلوق من الخالق يماثل كذلك دائما وأبدا العلاقة والسلوك بين المحبين كليهما ، أى العلاقة بين الرجل والمرأة . إن وجهة النظر فى الإسلام والذى يعنى امتثال المؤمن وخضوعه الخاشع المطمئن لإرادة الله وقضائه ـ تماثل موقف المحب من محبوبه ، الممتثل له ، الخاضع المذل كبرياءه طمعا فى رضا معشوقه « معبوده » ، كأنه الرب المعبود منزلة لدى من استبد به العشق .

وغالبا ما يشبه عمق الشعور بالعشق ، العشق الدينى ، حتى ليصعب التفريق بين الشعر الغنائى الغزلى وبعض الشعر الدينى ، ولقد إزدهر الغزل العفيف فى الصحراء ، حتى قبل ظهور الإسلام ، وكان غزلا أقرب ما يكون إلى العشق الروحى كما نعرف لدى بنى عذرة وغزليات شاعر الصحراء الشهير جميل فى حبيبته بثينة التى « علقها وائتلف روحاهما قبل أن يخلقا » ، ولئن لم يستطع العاشقان التغلب على العداوة التى حكمت العشائر أو البطون والقبائل ، فإن الشاعر كان يقنع بذلك التعبد فى محراب من لن ينالها فى هذه الحياة الدنيا ، عالما أن حبه ذاك أقوى من الفراق ، بل ومن الموت ذاته .

ولنرجع إلى الفيلسوف الأندلسى على بن حزم ونظريته حول فن الحب العربى ، حيث عالج الحب نظريا وعمليا فى كتابه « طوق الحمامة » حيث يقول : « ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ....[1] .... هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة .

ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مديرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحا ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ومودته له . وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء » .

ونحن نرى أن المحب يريد المحبوبة متكبرة ، متقلبة المزاج ، بل ممعنة فى القسوة ؛ حتى يثبت لها خضوعه ، حتى تشمله بعطفها ، فترفعه إلى رحابها ، من أعماق تلك الهاوية التى أحلّه إياها غضبها الإلهى .

ونرى شاعر الأندلس الفحل ابن زيدون ، يسعى طوال حياته للفوز بحب أميرة قلبه ولادة « منذ أن أصبحت عبدا لك فى الحب أسيرا » .

إن فن الغزل عربى النشأة ، تفجرت عيونه السخية فى دنيا العرب ، وتلك حقيقة أبى الغرب إلا أن ينكرها إنكارا ، وأصر على ذلك إصرارا ، ولم تتهاو مزاعم المستشرقين الألمان ، وأحكامهم فى هذا الميدان ، إلا بعد أن تقدمت المؤلفة عام ١٩٣٩ بأطروحتها لنيل الدكتوراه من جامعة همبولدت فى برلين ، ولنسمعن نبأ ذلك بعد حين.

تحرر المرأة العربية من ربقة النفوذ الأجنبى

دالت الدولة العربية فى إسبانيا فى عام ١٤٩٢ م ، وكذلك الحضارة العربية التى ظلت حتى ذلك الحين محتفظة بأصالتها سالمة من التزييف ، الذى ابتليت به فيما بعد عندما اكتسحت العالم الإسلامى الموجات المنصبة من آسيا ، بدءا من الأتراك فالمغول ،

١ – هذه الجملة هي أول جملة فى باب الطاعة ص ٧٣ من طوق الحمامة لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم (توفى ١٠٦٤) نشر مؤسسة ناصر للثقافة ، ثم تقفز المؤلفة إلى صفحة ١١٥ لتنقل بقية الفقرة ـ المترجم .

ثم الجيوش العثمانية - التركية المستعمرة [١] ، وانتهاء بالاستعمار الأوروبى المحتل ، فأصابها ذلك كله بالتصلب المرضى ، والركود بل الجمود الحضارى .

ومع خروج الأتراك وحلول الاستعمار الأوروبى محلهم - سواء الفرنسى أو البريطانى أو الإيطالى - تضافرت الجهود لتحرير المرأة ، متخذة المرأة الأوروبية قدوة تحتذيها فى دعوتها .

على أن مكافحة سلطان التقاليد الطاغى الزاعمة أنها تستند إلى شرع الله وحدوده ، ومنازعة الرجل حقوقه المعتادة التى ترسخت منذ عشرات القرون ، إنما تطلبت قوى خارقة للعادة . وبغض النظر عن الأعمال المتفرقة التى أسهم بها الرواد فى هذا الحقل ، فإن هذه المجهودات لم تقم إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، وقدر لها أن تكتسب أرضا لم تكد تثبت أقدامها فوقها حتى فقدتها وقد تم معظم ذلك من خلال طرق أربع :

بالرجوع إلى القرآن نفسه تتضح غُرْبَةُ التأثير الدخيل المستشرى الذى حاق بالمرأة ظلما ؛ فأنصف الذين سعوا لتحرير المرأة من المنطلق الإسلامى مثل مصر [٢] أما العراق وسوريا فقد اتجها فى تحرير المرأة من نبع الفكر الاشتراكى أو الأيديولوجية الاشتراكية

واستندت تونس مثل تركيا الجديدة فى علمانية صارمة إلى القوانين والمثل العليا الأوروبية[٣] .

وظلت مجموعة من الدول الأصولية على استمساكها بتقاليد السلف الملتزمة كالوهابيين فى المملكة العربية السعودية [٤] ، أو ارتدت إلى الصيغ المتزمتة كل التزمت مثل إيران .

---

١ - هذا رأى المؤلفة بدون تعليق - المترجم .

٢ - راجع ص ٥٤ - ٥٨ من سيكلوچية المرأة العاملة للدكتورة كاميليا إبراهيم عبد الفتاح بيروت ١٤٠٤ / ١٩٨٤ وقاسم أمين : تحرير المرأة - دار الشروق - القاهرة ١٩٨٨ والحجاب لأبى الأعلى المودودى - المترجم .

٣ - راجع : الرجل الصنم (كمال أتاتورك) ترجمة عبدالله عبد الرحمن بيروت ١٤٠٢ / ١٩٨٢ الطبعة الرابعة ، والإسلام يتحدى لوحيد الدين خان مراجعة د . عبد الصبور شاهين بيروت ١٤٠٥ / ١٩٨٤ ط : ٩ ، والإسلام وقضايا المرأة المعاصرة : البهى الخولى - بيروت ١٤٠٠ / ١٩٨٠ - المترجم .

٤ - راجع مجموعة التوحيد المحتوية على كتب ورسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ / ١٧٠٣ - ١٧٩١م) طبع الرياض - العبيكان بدون تاريخ - المترجم .

أما النقيض التام لذلك فيمثله العراق الذى يحكمه حزب البعث ، والذى عرف رئيسه العلمانى صدام حسين منذ أن كان نائبا للرئيس بفكرة المرجعية الاشراكية ـ المادية، والذى يرى أن « التحرير الكامل للمرأة أحد الأهداف الرئيسية للحزب والثورة » والذى أعلن أن « كل عزل للمرأة وكل تقييد أو حد لإسهامها فى الحياة الاجتماعية ، إنما يعنى سلب القطر نصف كفاءاته وطاقاته الفكرية والإنتاجية والحربية » .

وبعد إعلان قيام الجمهورية فى مصر عام ١٩٥٣ حصلت المصريات بعد صراعات معقدة على المساواة بالرجل قانونيا واجتماعيا ، وإن كان التطبيق العملى لم يغير من الواقع الفعلى كثيراً .

والواقع أن تقدم المرأة فى مصر ونهضتها أمر ملموس للعيان ، وقبل وقت قصير شهدت بون سفيرة لمصر ، على درجة فائقة من الذكاء والجمال ، أستاذة القانون الدولى الدكتورة عائشة راتب ، مصطحبة معها أربع سيدات شابات ، شغلن وظائف دبلوماسية فى بون .

وأىّ قلق يستبد اليوم بكثيرمن الرجال ، فينطلق من مخزونه فى نداءات نعرفها ، كما فى الكلمة التى توجه بها مولود قاسم وزير الشئون الدينية الجزائرى إلى المرأة : « لِتَكن ّمبدعات فى كافة المجالات ، لكن لا تكّن مُخَربات ! لا تَحلقن شوارب الرّجال كى تصنعن منها حبالا ! لا تبدلن كرامته فتسلبنه سلطانه ! أيتها المرأة : لتحذرى أن تردى عليه قائلة : « أننى حرة مستقلة » فإنماأنت لديه إنسان عينه ، وفى قلبه اللؤلؤة المصون، والدر المكنون » .

وعندما سئلت فى أحد المؤتمرات الإسلامية، ما نصيحتى للمرأة العربية قلت لهن :

« إذا أرادت المرأة العربية طى الماضى بخلعها الحجاب ، فلا ينبغى عليها أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها ، أو أن تهتدى بفكر عقائدى مهما كان مصدره ، لأن فى ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها لمقومات شخصيتها ، وإنما ينبغى عليها أن تستمسك بهدى الإسلام الأصيل ، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح ، اللاتى عشنه منطلقات من قانون الفطرة التى فطرن عليها ، وأن تلتمس العربية

لديهن المعايير والقيم التى عشن وفقا لها ، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المتمثلة فى كونها أم جيل الغد العربى ، الذى يجب أن ينْشَأ عِصامياً يعتمد على نفسه »

وثمة تحد مُعَيَّن طبع وجه الفلسطينيات بطابعه المميز فى فلسطين المحتلة : « فبينما يعانى آلاف الرجال ذل السجون ، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة ، وتربية الأطفال وتنشئتهن ، وحماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع واغتصاب الزبانية الوحشية السادر ؛ وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديدا فحسب ، وإنما نشأن وشببن ليتولين أدوارا قيادية فى المجتمع ، ولقد شاركن مشاركة إيجابية فى حركة الانتفاضة - أو قل جهاد التحرير - على كل المستويات الممكنة . إن نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم ، وهن اللاتى يحملن مسئولية تقرير المصير فى التحول الإجتماعى . فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية وينظمن اللجان والهيئات التعاونية والانتاجية ، ويوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها ، وهن فدائيات مجاهدات شهيدات ينتهك الغاصب كرامتهن ، ويزج بهن فى السجون ، ويمعن فى تعذيبهن . ولا ريب أن الفلسطينيات سوف يسهمن فى المستقبل إسهاما خطيرا فى تقرير مصيرهن بأنفسهن ، ومصير فلسطين . وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة فى ضوء تحقق المساواة وتحرر المرأة »

الفصل الخامس

« .... وحريق مكتبة الإسكندرية الكبرى » ؟!

هذه الفِريةُ المزيِّفَةُ للتاريخ والتى لا يُراد لها أن تُمحَّىَ أبدا

ـ على الرغم من تكرارتأكيد زيفها ـ تنشرها قبل عام واحد مرة أخرى جريدة يومية ألمانية كبرى فتقول : « عندما زحف جيش المقاتلين لنشر العقيدة فى حملته الاحتلالية العاصفة بقيادة عمرو بن العاص ، فاحتل مصر ، واقتحم الإسكندرية ، أمر بحرق مكتبتها العتيقة ـ مكتبة موسيون ـ وما بها من سبعمائة ألف مخطوط ، وأن تتخذ وقودا فى الحمامات ؛ فأفنى بذلك تراث الإنسانية العريق ، الذى تركه لنا الإغريق ، وقد قيل إنه حينئذ ينفذ أمر الخليفة عمر « بكلمته الساذجة وفكره المحدود » والذى قال :

إما أن يكون فى تلك المخطوطات علم مطابق لما فى الكتاب الذى لا كتاب سواه ـ أى القرآن ـ فإذن لا يكون فيها غناء ، ولا داعى لحفظها ، وإما أن يكون ما فيها مخالفا للقرآن فيجب حرقها ، فالإسلام لا يسمح أن يكون هناك سوى كتاب واحد مدون ؛ كتاب الكتب أى كتاب الله ، الذى ليس سوى القرآن .

ما للعرب وذلك الإفناء البربرى لتلك المعرفة التى لا يمكن إيجاد بديل يستعاض به عنها ؟ ما لهم ولذلك التدمير الذى لا يزال القوم هنا حتى اليوم يلحون علية لإثارة النفوس بغضا ، وصب الحقد الوقح قسوة وازدراء ، على أولئك الأجلاف المستخفين بقيم الإنسانية النفسية احتقارا ؟

الحق الذى لا مراء فيه أن المجمع العلمى ، الذى ضم أكاديمية الإسكندرية التى شيدها الملك بطليموس الأول سوتر عام ٣٠٠ ق . م . كان مصدر إشعاع علوم الإغريق الهلينية ، بمكتبته الضخمة التى حوت قرابة مليون مخطوطة ، قيل إنها جمعت كل ما

كتب باللغة اليونانية ؛ على أن ذلك المجمع العلمى الشامل لكافة أنواع العلوم والمعارف وقتذاك ؛ كانت ألسنة النيران قد أتت عليه عام ٤٧ ق . م . إبان حصار قيصر للإسكندرية ، ثم إن كليوباترة أعادت تشييد المكتبة وتزويدها بعدد لا يستهان به من المخطوطات من مكتبة برجمانون المصرية .

على أن القرن الثالث الميلادى كان بداية التدمير المخطط :

ـ فترى القيصر كاراكلا يلغى الأكاديمية ويحلها ، ويسفك دماء علمائها فى مذبحة وحشية فظيعة ...

ـ كما أن البطريرك النصرانى عام ٢٧٢ يغلق المجمع ويشرد علماءه آمرا بحرق « مؤلفات الكفرة » فيبيدها المشتعلون حماسا دينيامن النصارى ...

وفى عام ٣٦٦ يحول القيصر فالنس « السيزار يوم » إلى كنيسة وينهب مكتبته ويحرق كتبها ، ويضطهد فلاسفته ويلاحقهم بتهمة ممارسة السحر والشعوذة ...

فى عام ٣٩١ ـ مواصلة لاستئصال شأفة الكفرة ـ أى غير النصارى ـ يفلح البطريرك ثيوفيلوس فى الحصول على إذن القيصر ثيودوزيوس لهدم « السرابيوم » [١] كبرى الأكاديميات وآخرها ، وموئل حكمة العصور القديمة ، والقبلة الذائعة الصيت يحج إليها طالبو الحكمة من كل صوب ، ويترك مكتبتها بما حوته من ثلاثمئة ألف مخطوطة نهبا للنيران ، قرير العين بتشييده ديرا وكنيسة على أنقاضها ...

ـ أما ما نجا ومن نجا فقد أمسى غرضا لعصابة نصرانية من الغلاة المراهقين انتشرت فى الإسكندرية فى القرن الخامس الميلادى تولت مواصلة تدمير علوم الكفرة وفلسفتهم وتحطيم مراكز ثقافتهم وآثارهم ومكتباتهم والهجوم على علمائهم ، كما اعترف بذلك فى قحة ودون خجل سيفروس الأنطاكى ـ الذى صار فيما بعد بطريرك القبط وكذا صديق له .

هكذا نرى أن المكتبات القديمة فى مصر جميعا لم يكن لها أى وجود أيام دخول العرب الإسكندرية عام ٦٤٢ !

١ـ سرابيوم أصلا اسم للمعبد المخصص للإله الفرعونى – الإغريقى سرابيس ـ المترجم .

فما بالك بزعم الغرب أن رماد الجمر المتبقى من حرق مئات الآلاف من المخطوطات
الإغريقية التى ضمتها مكتبة الموسيون ، والتى كانت كبرى المكتبات المحتوية على ذخائر
الآداب القديمة - والتى حرقها العرب كما يصر الغرب فى زعمه - قد استغله العرب
وقودا فى الحمامات العامة طوال ستة أشهر !!! علما بأن تلك الحمامات ما كانت لتوجد
فى الإسكندرية تحت النصرانية المعادية للجسد ...... إن ذلك الرماد قد ذرته ريح
الشمال قبل ذلك بستة قرون فى الصحراء !!!

إن هذا الانحطاط الفكرى السادر يبين مدى إلحاح الغرب على إلصاق الأحكام
المسبقة الظالمة بالعرب ، ومدى استمتاعه غيا بتزييفه لحقائق التاريخ ، متفننا يخرق ما
شاء من المحال ، سخيا بتفاصيل لا أساس لها سوى الخيال ، بحيث تدفن الحقائق
التاريخية كما يود البعض فيما يبدو إلى أبد الآبدين دفنا ، على الرغم من تعدد محاولات
أفرادى المؤرخين المنصفين ، كشف ذلك الزيف المبين . بل إننا فى عام ١٩٨٩ نرى
القوم فى ألمانيا يغضون النظر عن الحقائق التاريخية ، السافرة لكل ذى عينين ،
يروجون من جديد ، فى رضا واقتناع ، واستنكار أخلاقى ، خرافة الحرق الهمجى
للتراث الإنسانى ، والتى اختلقها وروج لها روح الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر
الميلادى ، حيث زعم أحد النصارى العرب أن عمرو بن العاص حرق المكتبة التى كانت
فى قيصرية بالإسكندرية ؛ ولا يخجل القوم هنا من افتئاتهم على خليفة المسلمين عمربن
الخطاب المشهود له بأنه من ، أعظم مؤسسى الدول ، وأجلهم قدرا وكفاءة وعبقرية ،
يتهمونه بالسذاجة وضيق الأفق ، والجهل الذى لا جهل بعده .

إن تلك الكلمة المنسوبة ظلما إلى عمر ، المعروف بثاقب نظره ، تدل على جانب كبير
من بلادة الذهن ؛ فما أطلق المسلمون قط على القرآن تلك التسمية : « كتاب الكتب » وهى
التسمية التى تطلقها النصرانية على الإنجيل أخذا عن اليونانية ، وهى الاسلوب المميز
لآباء الكنيسة فى التفكير والتعبير وتظهر مناقضتها للحقائق التاريخية من ثلاثة أوجه :

١ - أمر الإسلام بتدوين القرآن « الكتاب » فحسب ، فكان فى البدء ثمة
كتاب واحد منزلا وحيا ، بالرغم من أن النبى أوتى مثله معه ، السنة ، وذلك
لتفصيل مجمله وبيانه .

٢ – إن سيرة الخليفة عمر نفسها تناقض هذا الجهل وعدم السماحة اللذين نسبتهما إليه تلك المقولة الظالمة المختلقة : فهو نفسه الذى أملى نص المعاهدة أو العهد مع كافة البلدان المفتوحه - والتى التزم وفقا لها قائد جيوشه عمرو بن العاص بألا يخرب أرض القطر المستسلم ولا زرعه ولا يستبيح ماله أو عرضه أو دمه ، بناء على تنبيهات الرسول ووصاياه التى تحرم السلب والنهب - وهو النص نفسه الذى أملاه الخليفة عمر فى عهد الأمان الذى عقده مع البطريرك البيزنطى المقوقس فى الإسكندرية ، وهو عهد تتضاءل إلى جانب عظمته وحكمته وسماحته كل عهود الأمان واتفاقيات السلام قبله وبعده وتتوارى فى ظله خجلا ... ويحفظ العهد القديم - سفر التثنية الإصحاح السابع من : ٥ - ١٦ وصايا موسى إلى قومه فى خروجهم قبل ألف وثمانمئة عام من مصر إلى كنعان ، وبالمصادفة فى الاتجاه المعاكس لاتجاه عمرو ، فيقول « : **« ولكن هكذا تفعلون بهم : تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار ... وتأكل كل الشعوب الذين « يهوه » إلاهك يدفع إليك . لا تشفق عيناك عليهم »** . أجل : على العكس من ذلك نجد عهد الأمان العربى الذى أملاه الخليفة عمر يسرى على كافة الذميين ، والذى التزمه القائد عمرو بن العاص كذلك مع بطريرك الإسكندرية « المقوقس » المذكور :

« يسرى هذا العهد على جميع الرعايا النصارى وقسسهم ورهبانهم وراهباتهم ، ويعطيهم الأمان لأنفسهم حيث كانوا ، ولكنائسهم ومساكنهم وأماكن حجهم ، والسماح لهم بزيارتها .... »

٣ – كان عمر على معرفة تامة بحرص الرسول وحثه على طلب العلم ، ذلك حتى يجد كل مسلم فى طلب العلم ، وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة ، وكان الرسول أسوة حسنة للصحابة والتابعين ؛ فهو الذى حث على طلب العلم ولو من فم الكافر ، « ولو بالصين »[1].

إزاء هذه السماحة والانفتاح العالمى للغرف من المعرفة ، مهما كان مصدرها ،

---

١ - للأسف استشهدت المؤلفة بحديث غير صحيح ، وهناك أحاديث صحيحة كثيرة منها « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه البيهقى والطبرانى والخطيب البغدادى عن على وابن عباس وابن عمر وأنس والحسين بن على .

تتضح بلاهة الادعاء المخترع للأمر بحرق الكتب ، بحجة أنه إن « كان فيها ما يوافق كتاب الله فلا حاجة إليه » !!!

وعى المسلمون طلب النبى إليهم مسارعين فى طلب العلم إخلاصا وشغفا ، وقد جاء فى القرآن : ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ سورة طه الآية أربع عشرة ومئة .

والإسلام يشكل الحياة منذ النشأة حتى المنتهى فى كافة المجالات ، غير غافل عن أى من تفاصيلها ، وهو نفسه الذى أصدر أولى تعاليمه إلى كل إنسان للسعى إلى طلب العلم .

أيَّةُ أعباء ألقيت على عاتِق الدولة الوليدة ! وأى فقه على كل عاقل مكلف أن يلم به ليؤدى الفرائض اليومية ؟ الصلوات وأحكامها وأركانها والصوم والإفطار والقبلة وغير ذلك مما يتطلب إلماما فلكيا ومعرفة بالقياس والحساب وما يتعلق بذلك ......

لا شك أن العبادات والفرائض أو الواجبات اليومية ، التى يحرص على أدائها المؤمن المكلف لا تكاد تحصى : مثلا الطهارة والتطهير ، وعلاج المرضى والوقاية لمنع انتشار الأوبئة بين ملايين الناس فى المدن ، والبحث عن أدوية جديدة ناجعة فى العلاج ، والدأب على تطويرها أو تحسين صنعها وإنتاجها ، وطريقة استخدامها وتبيين آثارها ..

كل ذلك مرتبط بلا شك بالتزام المسلم للشرع ، أو ما أمره به النبى من السعى فى طلب العلم .

وأن « الساعى فى طلب العلم فهو سبيل الله حتى يرجع » [1] و « أن مداد طالب العلم يعدل عند الله دم الشهيد » [2] .

إن هذه الطريقة التى شقّها محمد والإسلام ، والمباينة تماما لطريق النصرانية ، إنما مكنت العرب من ارتياد المسالك والممالك وتقحمها ، فحققوا سبقا أكيدا ما بين خمسة قرون إلى ستة ، مخلفين أوروبا تلهث آنذاك وراءهم .. وأنى لها غير ذلك وقداقتدت بقول بولس « لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله .. والرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة » .

١- مثل حديثى أبى هريرة : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » وأشهر منه . « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » والحديثان فى صحيح مسلم . وكذلك حديث أبى الدرداء : « .. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء .. وإنما ورثوا العلم » وغيره حديث أبى هريرة : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » والثلاثة رواها أبو داود والترمذى- المترجم .

ألم تكن هى التى أدانت الرغبة فى طلب المزيد من العلم حتى إن آباء الكنيسة حاربوا العلم والبحث بحجة أن ذلك « يجعلهم يترددون فى الخطيئة » ، مرددين بذلك ما أكده لهم تُولّيان حيث زعم أنه « بعد مجيء عيسى » لا يحق لهم « أن يكونوا محبى استطلاع أو أن يبحثوا فى العلوم ؛ ففى الإنجيل الكفاية » وأن يكتفوا بالرجوع إلى الوحى الإنجيلى ، فهو وحده القادر على تزكية الروح وشرحها . وعكس ذلك فى زعمهم صحيح : أى أن المرء - يضل ويسيء استخدام قوى العقل إذا اتجه إلى درس الطبيعة ... فلا عجب إذن أن تَحتّم على الغرب الانتظار طويلا ، حتى تبدأ طيرانها فى أفقه فى الغسق بومة منيرفا (آلهة الحكمة والفنون الجميلة والحرف لدى الرومان القدامى : المترجم) ، وكانت قبل ذلك بقرون قد حذقت الطيران فى آفاق الشرق مع السحر ، حيث تبين للعرب الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

« نَقَلَةُ تراث الإغريق فحسب ! »

انطلق العربى المسلم فاهماً دينه ، « يطلب العلم من المهد إلى اللحد » وسعى سعيا حثيثا يجمع شتات المخطوطات التى حوت علم الإغريق مما أفلت من الحرق . لقد ألجأهم إلى ذلك التعسف النصرانى غير المتسامح ، ومقاطعة النصرانية ازدراء للكفرة فى الإسكندرية ومئات البقاع الأخرى ، وتفاقم ذلك تفاقما أدى إلى إفناء المكتبات بما حوت من ذخائر العلوم القيمة ، فجد العرب فى التنقيب والبحث وجمع ما تبقى وترجمته وتهذيبه وشرحه ومراجعته والتعليق عليه ، ومواصلة البناء على الأسس القديمة ، مدفوعين إلى ذلك بالمقتضيات المستجدة فى أمور العقيدة والأمة والدولة .

تلك هى المأثرة الحضارية الخالدة ، التى يدين العالم للعرب بالفضل فيها ، وللعرب فحسب :

فلا الروم ولا البيزنطيون ولا فرق النصارى سواء الأقباط والنساطرة ، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريقية هلينية ، كان بعضها قد أبيد إبادة تامة على أيدى متحمسى النصارى النشطين فى مهاجمة العلوم ، وكان بعضها الآخر قد أمسى فريسة الإهمال ، موشكا على الاندثار إلى الأبد والزوال ، كما زالت من قبل بالمعنى الحرفى للكلمة حضارات المايا والإنكا واندفنت تحت الأنقاض ؛

فالعرب هم الذين نقبوا عن تلك الكنوز وبحثوا عنها واستخرجوها من بطون الأقبية المنهارة أو الآيلة للسقوط ، بعد أن لبثت قرونا حبيسة أبنية لا علاقة لها بالحضارة ، خلف جدران من دونها جدران ، فكان تخليصهم لها بمثابة تعويضات قدموها سواء فى اتفاقيات السلام (عهود الأمان) أو بالطرق السلمية الدبلوماسية .

ولم يعمد العرب إلى خزن ما استخرجوه وأنقذوه من تلك الذخائر ، وإن المرء ليصطدم بمؤلف آخر هو آرثور كوستلر فى مؤلفه « قصة نشوء معرفتنا العالمية ـ السُّراة فى نُعاسهم ! » الواقع فى ٥٥٠ صفحة والمنشور عام ١٩٥٩ ، حيث يورد فى مؤلفه النظرة السائدة القديمة ، فى هذه الجمل الأربع اليتيمة :

« لم يكن العرب سوى وُسَطاءَ ، حفظَة نَقَلَة رواة للتراث ، ولم يمتلكوا سوى قدر ضئيل منَ الأصالَة العلميَة والقدرة الإبداعية .

وعندما كانوا وحدهم حُرّاس ذلك الكنز ، لم يقوموا بجهد يذكر للإفادة منه ...

وهم كذلك لم يشجعوا العلم النظرى .

وإنها لحقيقة جديرة بالملاحظة أن ذلك الاحتكار العربى – اليهودى الذى دام قرنين أو ثلاثة قرون ، ظل عقيما » .

«ألم تحظ العلوم النظرية بتشجيع العرب » ؟

بلى !! وإنهم ما كانوا فحسب سعاة البريد ، نَقَلَة تراث الإغريق التليد؛ فالعرب أنفسهم لم يتوقفوا عند المستوى الذى بلغه السابقون ، ولم يقلدوه تقليدا آليا .

إزاء هذا التناقض ، يتضح للمرء الثقل الكلى لمعرفة أصيلة ، فى حالة تأثرها بإبداعات حضارات أخرى غريبة الوجه واليد واللسان ، أو أخذها عنها ، فإن تلك الحضارة (أى الأصيلة كالعربية : المترجم) لا تحظى بالتفات مؤرخى الحضارات ، بل تتناوشها الأحكام الظالمة ، دون أن ينتبهوا إلى ذلك ، كما هى الحال هنا ، وإدراك كيفية وأسباب استمرارية ازدهار حضارة ما ، أو بقائها « عقيما » .

فالحضارة ليست منتَجا يصاغ بالنحت أو بالصب وفق قوالب أو نماذج مُقَلّبة ، فلئن أخذت أية حضارة من سواها أخذا خلاقا مبدعا ـ وينسحب هذا على

الإغريق أنفسهم إذا أخذوا من تراث مصر الفرعونية والشرق الأدنى - فإنما تلتمس ما تستطيع تشكيله وتمثله ، مما يلبى متطلباتها واهتماماتها ، على أن توافق هذه طبائعها فى النظر والتفكير ، أو أن تقترب منها إلى حد كبير . هكذا نجد كل أمة تشكل هذا وفق طبيعتها ، فيصبح خلقا من صنعها حاملا بصماتها .

لهذا فإنه لخطأ ذريع أن يؤخذ على العرب أنهم لم يأخذوا خصائص معينة تميز بها قدامى اليونان - نعنى فلسفتهم أو ملاحمهم المأسوية الكبرى ، حيث قامت هذه على أبنية وأنماط معينة فى الفكر اليونانى - فلا يؤاخذ العرب بأنهم لم يواصلوا على الطريقة اليونانية ، ثم إن العرب على العكس من ذلك قد أبدعوا حضارة متميزة الملامح ، أصيلة لا يمكن أن تلتبس بغيرها ، ففيها علم أصيل لا يرضى أن يواصل هكذا ببساطة ، فقد انشعب أمامه مساران فكريان ثنائيان : الإغريقى والهندى ، فكان أمْيَلَ إلى اتخاذ طريق آخر ميزه عن الفكر الإغريقى وعن الفكر الهندى تمييزا ذا سماتٍ وخصائص فارقة .

يتضح لك هذا فى تباين تلك الأمم الثلاث نهجا وموقفا إزاء الكون والعالم الخارجى ، وإزاء مواضيع البحوث ذاتها .

وإيجازاً نقول : إن الأمر هنا يتطلب الإحاطة علما بنفسية الشعوب أو الأمم ؛ ذلك أن إيصال التراث الفكرى العربى ليس عملا آليا تلقائيا .

ولحسن الحظ نجد الفكر العربى يحتفل بالواقع الحقيقى ، بينما ترى الفكر الهندى يحتفل بالناحية الذاتية كل احتفال ، خلافا للفكر اليونانى الذى ينتقل طفرة من الجزئى إلى الكلى ، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة ؛ فالفكر الإغريقى لم يكن همّه الحقائق الملموسة المحسوسة ، وإنما وقّفَ بحوثه على مُثُلِه العليا، وتحركت دراساته النظرية حرة طليقة من إسار التأثيرات المادية فى مجال الفكر البحت ؛ « هذه الجملة الأخيرة التى كتبناها فيما كتبنا عن فيثاغورس [1] تصف طبيعة الفكر اليونانى وتحليقه عاليا متخطيا دنيا الواقع ، إلى النظر العقلى فى الفكرة المحضة » .

---

١ - وُلِدَ بيتاجورس (= فيثاغورس) فى النصف الأول للقرن السادس فى ساموس بجنوب إيطاليا وتوفى عام ٤٨٠ قبل الميلاد ويقال إنه فر من بطش بوليقراط ، بعد أن طوف بابل ومصر ، قال بالجانب الصوفى للأعداد فى فلسفته ، ولهذا شجع الموسيقى والرياضيات ، ونسبت إليه ـ المترجم .

على العكس من ذلك تميزت خُطا العربِ بثباتها اليقيني العلمي ، فقد سلكوا نهجا وعرا ، صعودا من أسفل الدَّرجِ في تسلسل تدريجي يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كُل منها على حدة : المنهج التَّجريبي القائم على الرصد والملاحظة دون ملل أو كلل ، والقياس ، والمعادلات والحلول الرياضية ، والترقي في صبر وكبد من الخاص إلى العام . ولئن كان اليوناني في جوهره من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن العربي قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة ومخترع علم الطبيعة التجريبي ، ولقد عَبَّدَ العربي بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيدا ، ومهّد طرق البحث تمهيدا .

إن العالم العربي قد صار بلا ريب ـ كما أفضنا القول في كتابنا « شمس الله تسطع على الغرب » مؤسس علوم الكيمياء العضوية ، هذا ولم يتردد العرب بحال من الأحوال في امتحان الفروض اليونانية وإخضاعها لمعايير النقد العربية التجريبية ، ـ وكان معظم تلك الفروض لا أساس له سوى التخمين ـ لعديد من الاختبارات والتجارب ، وصوبوا مئات ومئات من تلك الفروض العلمية الخاطئة ، ولا بأس أن نكتفي هنا بثلاثة منها :

ـ خطئي جالينوس [1] الذين بيّنهما المشرّح العربي الطبيب عبد اللطيف أحد أطباء صلاح الدين الأيوبي ، وقد صوبهما .

ـ فساد نظرية جالينوس حول وجود ثقوب في الحجاب الحاجز بالقلب ، وبيان أنها خيال محض ، على يد ابن النفيس الذي خلف عبد اللطيف في رئاسة المستشفى بالقاهرة ، وتصويبه إياها باكتشافه للدورة الدموية الصغيرة .

ـ خطأ نظريتي إقليد وبطليموس الزاعمة أن العين تسلط نورها على المرئيات ، بالتصويب العبقري لعالم البصريات ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبي [2] ، والذي وضع نظريات وقوانين عديدة في علم البصريات ، مقدما لأوروبا نظرية تكاد تكون

---

١ – ولد جالينوس عام ١٢٩ في برجامون ومات عام ١٩٩ ربما في روما ، وكان طبيب القيصر . ألف في الطب والفلسفة وفقه اللغة ولم يصلنا سوى ثلث أعماله ومعظمها في التشريح ، وتزعم دائرة المعارف أنه لخص أعمال من سبقوه وامتحنها بالتجربة خاصة في التشريح ، وقد أخذ بآراء هبوقراط دون استثناء وعلق عليها ، وظلت أعماله الطبية مرجعا رئيسيا حتى القرن الرابع الميلادي ، وظهر فضله على أيدي العرب ، الذين ترجموا أعماله وعدوه عمدة رئيسا !! ـ المترجم .

٢– توفي الحسن بن الهيثم عام ١٠٣٩ م ، بعد عامين من وفاة ابن سينا وكان إلى جانب ذلك عالما في الفلك والرياضيات ، وقد حظي بتشجيع الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تولى الخلافة منذ ٩٩٦ حتى وفاته عام ١٠٢١ م ، ـ المترجم .

متكاملة حول الأشعة ، بما فى ذلك الأسس التى عليها يقوم استخدام العدسات والمجاهر ، وكافة أنواع المرايا وآلة التصوير بالتعتيم الشمسى وكشافات الضوء الكهربية وغير ذلك .

ولقد بلغت تلك العلوم والمخترعات والاكتشافات أوروبا بواسطة الطرق الخمس التالية :

- عن طريق السفن والتجار وفرسان الحروب الصليبية وحجاج بيت المقدس والأماكن المقدسة للنصارى .

- صقلية العربية إبان خضوعها لحكم العرب مائتين وخمسين عام دون انقطاع وعن طريق بلاط صديق العرب الأكبر فيها القيصر فريدرريك من آل هوهن شتاوفن

- إسبانيا والبرتغال (الأندلس) حيث خضعتا للعرب ثمانمئة عام

- مترجمات مدرسة الترجمة العليا فى طليطلة العربية

- وعن طريق طلاب العلم المتقلبين بين الجامعات ، والبعثات والوفود واليهود الجوالين والحجاج والتجار .

وكما قيل حقا فإن إنجازات علماء العرب من أطباء وكيمائيين ورياضيين وفلكيين ومخترعاتهم الفنية ، التى وصلت إلى أوروبا إبان إحكام آباء الكنيسة قبضتهم عليها ليزداد تخلفها من سيء إلى أسوأ ؛ كل ذلك هطل على أوروبا كالغيث على الأرض الميتة فأحياها قرونا ، وخصبّها إبان ذلك من نواحى متعددة ، ودفعها دفعا قويا لكى تباشر بحوثها الخاصة بها .

ذلك هو العطاء الثانى ، وهو أسخى بكثير من سواه ، ولا يمكن أن يقاس فضله ، والذى يدين به الغرب بل والعالم كله للعرب : لقد قدم العرب مع نتائج بحوثهم الغنية وبطرق بحوثهم العلمية البواعث التى أشعلت الشرارة الأولى لإطلاق البحث العلمى الذى كان منذ القرن التاسع الميلادى مشلولا ، يكاد يموت خنقا ، وذلك بسبب عدم السماحة الكنسى الذى فاق كل حد ، والمنع والتحريم والملاحقة ، فأذكت النيران التى بددت الانقياد الأعمى للمسلمات والحقائق الإنجيلية والإغريقية وقضت على الخضوع لهيمنة اللاهوت الكنسى وساعدت البحوث الطبيعية على تفتحّها الذاتى وانطلاقها القوى .

التراث العربى بين الحرية والزّجّ فى السجون

إن قبول العلوم الصادرة عن الغريب ، ذلك العدو الدينى المستباح كان متباينا ، حافلا بالتوتر : فقد اختلط الإعجاب بالرفض الفظ ، ووقف الشك المحموم ، أمام الظمأ المستبد للعلوم ، ونظر البعض بارتياح إلى الانتهاج من جديد بنجاح لسياسة القمع والملاحقة ، والزج فى السجون بتهمة الزندقة .

وقد استقى الغرب معلوماته مباشرة من مصادر مثل بطرس فون مارى - كورت من بيكاردى ، الملقب بالحاج والذى عاد من المشرق إلى أوروبا بَراً ، مرورا بصقليّة - حيث سنحت له الفرصة أن يستمد معرفته الفنية الدقيقة بآلات الحصار العربية ، حيث درس حصارهم لحصن لوكيرا وسجله ، كما ألف إلى جانب ذلك رسالته الصغيرة المشهورة حول المغنطة ، وهى أول رسالة علمية فى الغرب عن المغنطة والبوصلة الممغنطة التى بحثها وعالجها علميا جابر بن حيّان ، ثم إن مؤرخى الصين نصوّا على أن العرب منذ القرن التاسع الميلادى خاضوا المحيط بسفنهم فى ظلام الليل .

ومبلغ علمنا أن بطرس المقدّس لم يلق أذى من قبل المراقبة الكنسية على نقيض تلميذه الشهير الإنجليزى الشاب روچر باكون من سمرست ، الذى ساقه شغفه بكل ما هو عربى إلى كارثة مفجعة ، تكاد تقترب من الفجيعة الفادحة التى لقيها جوردانو برونو .[1]

كان روچر باكون (١٢١١ - ١٢٩٤) موسوعة علمية بمقياس عصره ، وحين أهمله بنو عصره الذى ساده التعصب العقائدى ، وركوع السلطة الكنسية الأعمى على أعتاب أرسطو، وإغراق اللاهوتيين المفرط فى التدقيقات والتفريعات الثانوية ، والجدلية الواهية ، اعتزلهم مرتدا إلى أكسفورد المنفتحة عالميا ؛ حيث تنتقل مؤلفات العرب من

---

١ - جوردانو برونو واسمه الحقيقى فيليبو فقد ولد فى نولا ١٥٤٨ ومات فى روما يوم ١٧ فبراير ١٦٠٠ ، وكان فيلسوفا أديبا ، فر عام ١٥٧٦ إلى چنيف لاتهامه بالزندقة ، وتنقل بين فرنسا ولندن وعديد من بلدان ألمانيا ، وشغل كرسى الفلسفة فى جامعة ڤيتنبرج بألمانيا عام ١٥٨٦ ، ثم عاد عام ١٥٩١ إلى إيطاليا ، وقبض عليه فى البندقية ثم سيق إلى روما ، وبعد محاكمة استغرقت أعواما حرقته محكمة التفتيش الكنسية علنا فى ميدان عام فى روما ! وقد انتقد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وعدم التسامح النصرانى ودعا إلى استخدام العقل والتجربة ، وكان مع صاحبيه جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وتوماسو كامبانيلا (١٥٨٦ - ١٦٣٩) من حملة العلم لعصر النهضة - المترجم .

عالم إلى عالم ، فتملؤه حماسا الرؤية الحرةُ للواقع ، ومسهُّ مساً مباشرا للأمور الحقيقية ، والتوسل اليدوى الفعلى بالآلات والأشياء مادة البحث ، وفحصها وتجريبها معمليا .

وجماع الأمر ، والذى عليه المعول ، إنما هو التجريب بصفته طريقة البحث المثلى لاستخلاص القوانين ، كما اعتاد العلماء العرب أن يعملوا ، مثل ابن الهيثم والكنْدى . وينسحب هذا أيضا على الرياضيات ، وذلك بوضع المعادلات والقوانين وتنفيذها عمليا للإفادة منها .

هكذا أبدع روچر باكون مستغلا قدرة الفكر على التخيل ، ممهدا لظهور مخترعات وتطويرات جديدة ، وذلك بمواصلة تنفيذ ما أمده به التصور الفنى العربى ومخيلته الشخصية .

لا عجب إذن أن يرتاب فيه رؤساؤه من طائفة الفرنسيسكان ويتهمونه بأنه يتدخل بأفعاله المتعمدة قصدا فى تبديل خلق الله .

وزاد من خطورة الأمر أنه لم يكتف إبان اشتعال الحروب الصليبية بشجبه وتنديده بالمعاملة غير الإنسانية تجاه العرب الذين كان يعتز بهم ، بل لاستشهاده دائما وعلنا بعمدته من العرب والمسلمين ، ولم يكن عدد الذين يلهج لسانه بذكرهم من علماء المسلمين بأقل من ثلاثين ..... وكان رد رؤسائه أن طردوا ذلك الحائد عن الطريق ، المزدرى كل المقدسات والسلطات الدينية سنوات عشرا من أكسفورد .

أما ذلك المنفى المطرود فقد رحل إلى پاريس ، حيث شاء قدره أن يعلو نجم سعده قبل أن يأفل لاحقا ويهوى فى قرار سحيق ؛ حيث التقى بالفرنسى چى لى جروس ڤولكس الذى كان من قبل الأمين والمستشار القضائى الخاص للملك لودڤيج التاسع الملقب بالقديس ؛ وكان الفرنسى ـ الذى آب من الحملة الصليبية وقتذاك ـ لا يزال مأخوذا مثل ملكه بهول القذائف النارية التى زلزلت أعماقهما « وهى تطير محلقة ، مدوية كالرعد » ؛ ذلك أن الحملات التى شنها النصارى تباعا على المسلمين لم تجعلهم يخلدون إلى الراحة إلا بعد أن توصلوا ـ بعد تجارب طويلة ـ فى معامل المساحيق السرية إلى اختراع أسلحة كيميائية ، أثبتوا بها تفوقهم البالغ على الفرنسيس والفرنجة ، وأعدوا لأولئك الأعداء عند دمياط استقبالا ناره تتلظى ، وصفه مُسجل حوادث الحروب الصليبية

الفرنسي جوانفيل كاتبا : « لقد بدت السماء كأنها تُصلي الأرض بألسنة البرق وكأن تنانين ضخمة راحت تتراقص في جو السماء .. وأحاطت بنا النيران وألسنة اللهب من كل جانب ... وكلما سقطت قذيفة ريع قلب ملك فرنسا وجأر يدعو مستغيثا : أيها السيد عيسى المسيح ! نجني وقومي » ! .

إن وصف هذا الصديق الجديد ، الذي وجد فيه روچر باكون قريبا روحيا من حيث صراحته وإعجابه بثراء مخترعات العالم العربي إضافة إلى كونه شاهد عيان صدوقا ، رأى بعينيه وسمع بأذنيه ، ينعكس فيما حرره في المجلد السادس صفحة (٢) من أعماله الرئيسية حيث يقول :

« لقد اكتشفت فنون هامة لمواجهة أعداء الدولة ، بحيث يمكن التوسل بها ـ بدون ضرورة أي التحام أو اشتباك جسدي لاستعمال السيف أو نحوه ـ من إبادة العدو ، أو كل من يبدي أية مقاومة » .

لم يكد روچر يعود إلى أكسفورد ، بعد انقضاء عقوبة النفي عشر سنوات ، حتى تسلم رسالة سرية من بروچيا في إيطاليا ؛ ذلك أن صديقه الفرنسي ذاك ، الذي صار في تلك الأثناء أسقف نربون صديقه روچر باكون عام ١٢٦٥ يطلب إليه فيها أن يرسل إليه مؤلفاته بأسرع ما يمكنه ، وأن لا يستمع إلى أقوال رؤسائه الفرنسيسكان المُضَلِّلَة .

على أن فرصة العمر اليتيمة التي سنحت دون توقع ، لكي يخترق بأفكاره جدران الصمت ويحطم المحظورات والممنوعات الكنسية ، بل لكي يحظى بتشجيع أعلى سلطة نصرانية ، تبددت هباء وجرته إلى الدرك الأسفل من المحنة والبلاء :

لقد بات روچر باكون يخشى أن لا يستطيع إتمام مؤلفه الرئيسي في وقت مبكر ، لهذا اختصره في موجز صغير ، ثم أوجز الموجز في متن ، ولم يكد الموجز والمتن يصلان إلى روما ـ بعد انصرام ثلاثة أعوام من تاريخ بدء قيامه بإنجاز المهمة ـ أي في عام ١٢٦٨ حتى عاجلت المنية البابا ولي نعمته ونصيره .

هنا ثار تنظيم الرهبان الفرنسيسكان من المنشق عليهم ؛ إذ تخطاهم في اتصاله مباشرة بالكرسي الرسولي (البابا) ، **ولم ينته عن زندقته بمخالطة الكفرة « أعداء الرب » ، وعصيانه أمرهم إياه بالكف عن التوسل الممنوع**

لآلاتهم وأجهزتهم الشيطانية ، وتدوينه تجاربه ، وكشوفاته ، ومشروعاته المستقبلية ، ونقده الدائم الذى لا يرحم للنظام التعليمى الكنسى فأصدر التنظيم حكمه على المتهم « المشتغل بالسحر » روچر باكون بالسجن مدى الحياة ، ولكن التعيس مات بعد خمسة عشر عاما من الحبس فى أعماق السجن المظلم الرطب عام ١٢٩٤ شقيا بائسا .

لقد رفع روچر باكون لمعاصريه مرآة ليروا أنفسهم مرددا قولة أحد أسلافه النورمانديين : « إن البهائم وحدها تتبع الزمام الذى يوثقها ، كذلك فإن سلطة « المؤلفات » تقود عددا ليس باليسير منكم ، فأنتم أسراها المكبلون ، منقادين لها بسرعة تصديقكم الحيوانية » . لقد استعار هذه القولة التى أطلقها أحد بنى جلدته النورمان قبل مائة وعشرين عاما خلت ، بعد أن حذق اللغة العربية ، وطوّف ببلاد العرب ، ودرس فى عاصمة عربية علوم الطبيعة بالعربية ، باذلا فى ذلك غاية الجهد : نعنى أدلهرد فون باث من بريستول والذى ولد عام ١٠٩٠ ومات عام ١١٦٠ .

بعد إياب « أدلهرد » من السعَة والحرية السائدتين فى عالم الفكر العربى ، يغدو ذاهلا مكتئبا مرتاعا لما يسود وطنه من جو خانق وركود ، ويعلن سخطه ويصب غضبه فى رسالته « أسئلة إلى الطبيعة » على ضيقى الأفق ، الواقفين عقبة كأداء فى طريق كل معرفة بالعلوم الطبيعية ، وعلى حجرهم المستبد تكبيلا للأفهام . هنا تكاد نفسه تذهب حسرات ، فيطلق من أعماقه زفرات ، أطلقها بعده بمئة عام خلفه روچر ، لكن أيضا وأن كان الأخير قد شدوا وثاقه شداً ، فكراً وجسداً :

« إننا إن تهاوننّا وقصّرنا فى تفهُّم أسرار هذا الكون الرائعة ، وجماله وجلاله البديع الحكيم ، ونحن نعيش فيه ، فإننا نستحق كل الاستحقاق أن نطرد منه طردا ؛ لأننا نكون أشبه بالضيف الجاهل حرمة البيت وكرامته ، الذى أحلّه أياه المضيف .

لقد أتيح لى أن أتعلم شيئا من الأساتذة العرب الحكماء عن الانقياد للعقل ؛ أما أنت فإنك تتّبع صورة فرضتها عليك هيمنة مستبدة ، كأنك مقيد إلى رَسَن ، مأخوذ بمقودك ... ألا فلتعلمن أن

الماشية التى يؤخذ بأزمتها إلى أية وجهة ، إنما لا تستطيع أن تميز أو تستبين إلى أين ولماذا تُقاد ، ولا تملك إلا أن تتبع الزمام الذى يوثقها ، كذلك فإن « سلطة المؤلفات » تقود عددا ليس باليسير منكم ، فأنتم أسراها المكبلون ، منقادين لها كالدواب بسرعة تصديقكم الحيوانية » .

النحل والانتحال :السطو على منجزات الفكر العربى وانتحالها

إن قبول مؤلفات العرب وأعمالهم ، والتى أخذت تتدفق على أوروبا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وازداد تدفقها خاصة فى القرن الثانى عشر ، قد كان ـ كما أسلفنا ـ ذا شقين : فقد صادف أعظم ترحيب لدى الدوائر أو الواحات التى احتفلت بالدراسات الطبيعية مثل المدارس العليا فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، مثل شارتريه وريمس وأوجسبُورج وكولونيا ورايشنو وأكسفورد ، حيث كانت علوم العرب تلك تُدَرّس بنهم شديد ، وبلغ رجحان كفتها درجة جعلت بعض الأعلام مثل أدلهرد فون باث يعترف أنه كثيرا ما نَحَل أفكاره الخاصة مؤلفين عربا ، يبتغى بنسبتها إليهم أن يظفر لها بالتأييد فتسود [1]

من ناحية أخرى ، اصطدمت منجزات أعداء الدين حينا من الدهر بالرفض الفظ المحتدم ، والشك المتهم ، لبواعث لم يكن أدناها الحسد والمقت ، فلئن شاء سوء الحظ أن يكون أولئك المقوتون المستحقون لكل ازدراء ذوى الفضل ، يُسدى إليهم الشكر ، وأن يقف الغرب بين يديهم موقف التلميذ ، فإن ذلك ليس إذلالا فحسب ، وإنما هو اعتراف صريح بتفوق العرب العقلى ، ثم إن فيه بعد كل هذا إرغاما للغرب أن يتقدم بالشكر لهم .

لقد عرفنا من كتب التاريخ زعمها الذى ألحت زمنا طويلا عليه إلحاحا ! حيث نسبت إلى الإيطالى فلافيو جويا من « أمالفى » أنّه اخترع البوصلة عام ١٣٠٢ ، وإن كانت اليوم لم تعد تجهر بذلك من قلب ملؤه اليقين . والثابت أن جابر بن حيان أجرى تجاربه على البوصلة فى القرن الثامن ، وأن البَحارة العرب ـ وفقا لما تبقى لدينا من مصادر قديمة ـ قد اتخذوا البوصلة عام ٨٥٤ فى رحلاتهم البحرية الكبرى ، واهتدوا بها فى تحديدْ مساراتهم ، أى منذ خمسمائة عام قبل الإيطالى ؛ على أن أحدا لم يشأ إدراك ذلك ، فكان الأحب أن ينسب البعض اختراعها إلى الصينيين بدلا من العرب .

١- انعكست الآية اليوم فترانا نلصق على بضائعنا العربية « ماركات » أجنبية لتروج - المترجم ' .

كانت مدينة « أمالفى » مسقط رأس فلافيوس أول ميناء بحرى إلى جانب البندقية تربطه علاقات تجارية هامة مع الأصدقاء العرب ، وقد عرف منهم تلك البوصلة المفيدة ، وأغلب الظن أنه قام بإدخالها إلى الغرب لتعم فى الرحلات البحرية ، وقد كانت معرفته بالبوصلة بلا شك قبل بطرس فون مارى كورت بثلاثة وثلاثين عاما ؛ وقد أورد بطرس هذا فى مؤلفه « رسالة فى المغنطة » رسما لبوصلة ذات أرقام عربية ، ومحتمل أن يكون فلافيو قد أدخل البوصلة إلى الملاحة البحرية فى أوروبا .

كذلك زعموا فى اختراع البارود : لقد كَبُر على الغرب الاعتراف بأن العرب مخترعو البارود ! هذا أمر خليق بالأوروبى والأخلق أن يكون هذا الأوروبى : مخترعا ألمانيا ، يُكال له الثناء ، ويخلد فى سجل عظماء الأذكياء ! وحبذا لو كان بالطبع راهبا ، إذا لم يقتض الأمر نسبة الاختراع إلى الصينيين ! هنا وقع اختيار القوم على الراهب برتهولد شفارتز من طائفة الرهبان الفرنسيسكان ليؤدى دور الراهب ، معتكفا فى ديره مملوءة جعبته بالأسرار والعجائب ، حتى إنه تمكن عام ١٣٥٩ من اختراع البارود فى صومعته الضيقة !!

ألم يأتهم نبأ قناصة العرب فى إسپانيا الذين سبق لهم عام ١٣٢٥ ثم عام ١٣٣١ ثم عام ١٣٤١ أن ألقوا الرعب وأثاروا الهلع والفزع فى صفوف الفرسان الذين وفدوا من أرجاء أوروبا واحتشدوا لهم ؟ !

بلى ! ثُمّ تُراهم نَسُوا تضرعات ملك فرنسا [1] قبل ذلك بمئة عام (أى عام ١٢١٩ حين استرد الكامل دمياط : المترجم) وقد تملكه وجيشه الهلع ظنا منه أن قد أزفت الآزفة ، فبددت حالك الليل فوق النيل تحت وميض قذائف الرعد الخاطفة . ثم إن الصينيين لم يخترعوا البارود ، ففى حربهم المصيرية الفاصلة ضد المغول عام ١٢٣٢

---

١ – المقصود لويس التاسع ، وقد صور الشعراء مثل البهاء زهير وابن مطروح تلك المعارك ، وتسجل كتب التاريخ العربية أنباء تلك الحقبة ، بما سادها من خلافات ومؤامرات ودسائس بين أبناء بنى أيوب فى مصر ، مما أطمع الفرنجة فغزوا بلاد المسلمين ، لولا بطولة كثير من المجاهدين مثل الأمير الكريم فخر الدين الذى أبلى واستشهد فى حملة لويس التاسع تلك ، وما أشبه الليلة بالبارحة ! وأنعم برد الملك الصالح بقلم البهاء زهير على لويس : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد : فقد وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ؛ فلو رأت عينيك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن

راحوا يرمونهم بالسهام المشتعلة رؤوسها لإشعال الحرائق فحسب ، بينما نرى قبلاى خان المغولى عام ١٢٧٠ [1] يطلب إلى السلطان العربى أن يمده بمهندسين من بعلبك ودمشق ليستخدموا البارود فى حربه مع الصين ، وبذلك تم له النصر .

وليس الأمر كما زعم الغرب بتلفيقه حكاية الراهب المتبتل ، واسمُه شفارتز Schwarz أى : الأسود والمتبحر فى السحر الأسود أيضا : شفارتز كونست : Schwarzkunst ، فإنهم اختلقوا الاسم وفصلوا عليه الاختراع ، بل إن الأقرب إلى الصواب أن النصرانية الغربية ، التى أبت إلا أن تتابع موجات حملاتها الصليبية على الأقطار العربية ، وحاجة العرب الماسة إلى صد بغى الصليبيين الفاتك فتكا بالسلام ، كانتا وراء اختراع العرب للبارود ، كما تثبت مؤلفات مختلفة منها كتب الحرب للعالم حسن الرمّاح ، وسواها ، كما شهد بذلك من قبل روجر باكون .

أما الإغراء الذى لم يصمد له الغرب فى نَحْله بنيه مبتكرات العرب ومنجزاتهم العظيمة فقد تغلغل فى الطب ، فقد كان حقلا تجلت فيه على وجه الخصوص الحاجة الماسّة للاستدراك وسد النقص ؛ يشهد على ذلك عام ١٥٠٠ أجريبا فون نتِسّهايم من كولونيا ، وكان يدعى فى شبابه قبل حصوله على اللقب هاينرش كورنلِيس ، حيث يقول فى مؤلفه « فى العلاج والطب » :

«لقد أصبح العرب على درجة من الشهرة جعلت الرأى يشيع أنهم مخترعو هذا الفن ؛ وقد كان بإمكان العرب أن يدعوا ذلك بكل بساطة لولم يفرطوا إفراطا فى مؤلفاتهم فى ذكر أسماء وكلمات لاتينية ويونانية .

= تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء الظنون (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، وتكون أيضا على آخر سورة ص (ولتعلمن نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وقول الحكماء : « إن الباغى له مصرع » وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك ، والسلام » ص ٣٦٢ من (الأدب فى العصر الأيوبى للدكتور محمد زغلول سلام) المترجم .

١- Qubilai أو Kublai الملقب بالخان الأكبر الذى فتح الصين عام ١٢٧٩ -١٢٨٠م ، كان فى جيشه خبراء عرب ، بعد اكتساح المغول من قبل لبغداد عام ١٢٥٨ بقيادة هولاكو ، وحلب ودمشق بقيادة كتبغا عام ١٢٦٠م ، وفى العام نفسه هزمهم السلطان بيبرس فى عين جالوت شمالى القدس ، وفى عام ١٢٧٠ نفسه قاد لويس التاسع حملة صليبية ضد تونس وقرطاجة ، وكذلك الملك إدوارد الإنجليزى حملته على تونس وفلسطين ، ولكن المماليك انتصروا وحرروا معظم الحصون من الصليبيين الفرنجة فى فلسطين والشام ، وجدير بالذكر أن بركه المسلم أخو هولاكو ناصر المماليك ، والأخوان كلاهما حفيد جنكيز خان - المترجم .

لهذا فقد حظيت مؤلفات ابن سينا والرازى وابن رشد [1] بالموثوقية نفسها التى قوبلت بها أعمال هيبوقراط وجالين ، وصار لها من ثقل الوزن والصيت ما إن الطبيب الذى يتصدى للعلاج دون الرجوع إليها ، لَيَسهُلُ اتهامه بأنه يخرب الصالح العام تخريبا »

على أن هذا لم يكن الرأى المُجمع عليه فى الغرب : فإنك تصطدم حتى اليوم بالزعم السائد منذ عام ١٥٥٢ ، أن الجراح الفرنسى أمبرواز بارى هو أول من قام بإيقاف نزف الأوعية الدموية الكبرى ، افتئاتا ظاهرا ؛ فإن صاحب الحق فى هذا السبق الطبيب العربى أبو القاسم قبل ستمائة عام خلت قبل الفرنسى .

إن ذلك الجراح الأندلسى الكبير أبو القاسم (المتوفى عام ١٠١٣) [2] والذى كان معاصرا للقيصر أوتوالثالث ، اشتهر خاصة بكونه أستاذ أطباء أوروبا ومعلمهم ، وكثيرا ما انتحل الغرب عديدا من إنجازاته الطبية ، منها :

ـ وضع التدلى أثناء التوليد Hangelage والذى ينسب منذ عام ١٩٠٠ إلى الألمانى فالخر (١٨٥٦ ـ١٩٣٥) Walcher اختصاصيى أمراض النساء ، حتى صار يعرف باسم التدلّى الفالخرى : Walcher - Lage [3]

ـ الوضع الذى نصح به أبو القاسم فى إجراء الجراحة فى التجويف أسفل السرة بحيث يرفع الحوض والعجيزة والقدمان ، نحلوه للجراح الألمانى فريدرش

---

١ – أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠ ـ١٠٣٧) أمير الأطباء مؤلف الموسوعة الطبية « القانون فى الطب » التى ترجمت للاتينية ، فكانت من أمهات المراجع للغرب ، وهو أول من أدخل المشرط فى الجراحة . أما الرازى محمدبن زكريا (٨٦٥ – ٩٢٥) فهو أعظم طبيب عربى وهو أول من تعرض للجدرى والحصبة ، وقد ترجم مؤلفه « الحاوى » إلى اللاتينية عام ١٥٤٢ ليصبح مرجع دراسة الطب فى أوروبا . وأما ابن رشد أبو الوليد محمد (١١٢٦ – ١١٩٨) أو أرسطو العرب فقد كانت موسوعته «الكليات فى الطب» عمدة دارسى الطب فى الغرب ، خاصة أبحاثه فى الوقاية من الجدرى ووظيفة الشبكيّة retina أو الطبقة الباطنية من الجزء المتحسس فى العين ـ المترجم راجعا إلى المعاجم الطبية

٢ – هو ابو القاسم خلف الزهرواى المسمى فى اللاتينية Abulcasis (٩٣٦– ١٠١٣) ومن مؤلفاته « التصريف لمن عجز عن التاليف » ويضم فكرا جديداً فى الكى أو الحسم cauterization وتفتيت حصى المثانة crushing stones in the bladder ـ المترجم أخذا عن قاموس حتى الطبى .

٣ – تذكر المعاجم الطبية الألمانية هذا المصطلح ناسبة إياه إلى فالخر ؛ حيث ترقد التى بصدد الوضع أثناء المخاض معترضة فى السرير ، بحيث يستند العَجُز على حافة السرير أو تمسكه مساعدة الداية حتى يدلف رأس الجنين إلى الحوض الأوسط لتسهيل الوضع : المعجم الطبى ص ٢٢٦٩ برلين ١٩٨٧ ط ١٢ ـ المترجم.

ترندلبرج (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) : Trendelberg Friedrich يشتهر بالوضع الترندلبرجى [١] ـ تشخيصهُ لمرض الفقر والمفاصلِ ، والذى صار ينسب إلى برسيفال بوت (١٧١٣ ـ ١٧٨٨) Percival Pott وخلّده تاريخ الطب باسمه : البلاء البوتى أو البلية البوتية .

ـ أما اكتشاف الدورة الدموية ، فقد راح يدعى الفضل فيه للإسپانى ميكائيل سرڤت (١٥٥٣) والإنجليزى ويليام هارڤى (١٦١٦) ، وكلاهما تزييف منتحل وكان قد شاع من قبل خطأ اليونانى جالن [٢] الذى عاش فى المئة الثانية الميلادية فى روما ويعد أعلى سلطة طبية موثوق بها فى العصور الوسطى ؛ فقد زعم أن الدم النقى يتدفق من بُطين القلب الأيمن من خلال مَسام موجودة فى الحجاب الحاجز بالقلب إلى البطين الأيسر ، وهذا خطأ فادح أول من التفت إليه ونبّه عليه ابن النفيس الدمشقى رئيس أطباء مستشفى الناصر بالقاهرة من عام ١٢٦٠ إلى ١٢٨٨ ، ودحضه مبينا خطله . لقد كان ابن النفيس أول من فحص الدورة الدموية وشخص تشخيصا مفصلا [٣] ما « يشبه تشريح الجثة » حتى أدق التفاصيل ، وكلمات ابن النفيس ذاتها يتخذها الإسپانى ميكائيل سرڤت (١٥١١- ١٥٥٣) بعد ابن النفيس بثلاثمئة سنة ، فى مؤلفه النقدى الضخم « إصلاح النصرانية » . وقد راح يصور من وجهة نظرية بحتة دورة الدم فى الجسد وكون الدم مَركّبة الروح فى دورته ... أفهذا من توارد الخواطر ؟ أم أن هذا انتحال ساطٍ على أفكار الآخرين ؟

ونظن أنه ـ وهو الإسپانى الذى اطلع على المؤلفات العربية بما فى ذلك مجال الطب ـ قد أتيح له أن يتعرف إلى حاشية ابن النفيس على مؤلف ابن سينا « القانون » فى التشريح ، والذى لا يزال حتى يومنا هذا محفوظا فى « إسكوريال » بمدريد ... لقد كان من وراء فعلة « سرڤتس » هذه روح الزندقة الذى ألجأه إلى شن هجمته النقدية على

---

١ - والوضع الترندلبرجى وفيه يكون وضع الرأس منخفضا إلى أسفل أثناء العملية فى منطقة الأمعاء : ص ٢١٣٧ من المرجع السابق ـ المترجم .

٢ - يورد المعجم السابق ج ١ ص ٧٤٧ « طبيب يونانى (من ١٢٩ إلى ١٩٩) وأهم أطباء العهد الرومانى وكان حلقة الوصل بين طب اليونان ـ إن جاز أن يدخل تحت علم ـ وبين الطب ـ المترجم .

٣ - هو على ابن أبى الحزم ابن النفيس (١٢١٠ - ١٢٨٨) ، أول من تناول الدورة الدموية واكتشفها فى مؤلفة « شرح القانون » ـ المترجم .

النصرانية . وبتأييد من كالڤين لدعوى الاتهام زج به فى أعماق السجن فى بؤس وشقاء ، ثم نفذ فيه حكم الإعدام بالحرق علنا فى « چنيف » ...

ويسترعى الانتباه بشكل ملحوظ تصويره الدورة الدموية الصغيرة تصويرا مقتضبا مبتسرا ، خاليا من الإثارة ، ومن كل إشارة إلى مصادره التى رجع إليها ، بل إنه لم يذكر على الإطلاق « جالينوس » ولم يعترض ولو بكلمة واحدة على نظريته عن الثقوب التى زعم وجودها فى جدار الحجاب الحاجز للقلب ؛ وأغلب ظننا أنه لم يكن يعلم شيئا عن جالينوس .

الحق أن ذلك كان يجب أن يجعل المتشدقين المتحمسين له ، والذين راحوا يكيلون له الثناء وفضل الريادة والاكتشاف المزعوم ، يتفكرون فيما يدعون ؛ وأخيرا قُدر لواحد من بنى جلدة ابن النفيس العرب : الطبيب القاهرى الططاوى ، الذى كان يواصل دراسته للطب فى جامعة « فرايبورج Freiburg » بألمانيا ، أن يقع على الحقيقة عام ١٩٢٤ فنبه إلى فضل ابن النفيس وسبقه باكتشاف الدورة الدموية الصغيرة .

ومن كبار المنتحلين الذين سطَوا بانتظام على تراث العرب وكان لهم فى ذلك باع طويل : النصرانى قنسطنطين الإفريقى ، الذى ولد فى قرطاجة ، والذى احترف بيع الأعشاب والعقاقير الطبية ، وطوف بالبلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، حيث أتيح له أن يختلف إلى مدرسة الأطباء فى سالرنو ، وكانت هيئة التدريس فيها من أعراق وأجناس متباينة : هنا عنت له فكرة التوفيق بين التناقض الهائل فى مستوى معرفة الفرنجة بالطب ، والبون الشاسع لمعرفة العرب المتمثلة فى القلاع العربية الشامخة فى علوم الطب والتطبيب ، وبعد أن احتشد للأمر متخذا ما يلزمه من تدابير ، غادر سالرنو ليعود إليها بعد حين وتحت إبطيه مجلدات ومجلدات .. ثم أكب على عمله الخصيب فى همة ونشاط عجيب ؛ لكنه سرعان ما نقل مقر نشاطه إلى مونت كاسينو ليتوفر عليه كليّة دون إزعاج ، وبينما توالت المؤلفات التى سطرتها ريشته سيالة ، يعقب بعضها بعضا دون هوادة ، غير مهملة مجالا واحدا من مجالات الطب ؛ حيث تدفق ما فيها من علم قيم كأنه شلال من التنوير والتجلى ، ينصب فياضا من منابعه .

على هيئة تدريس الطب فى سالرنو - راحت منزلته تعلو ، فاشتهر بعلو الكعب ،

بوصفه أستاذا علامة فى الطب ، وأحاطته هالة من المجد والتوقير ، فياله من عقل فذّ منقطع النظير !

على أنه بعد انصرام أربعين عاما ، آن أن تتكشف حقيقة حكيم مونت كاسينو العظيم ، فلم يكن سوى تاجر محتال ، محنك دجّال :

فسرعان ما سقط خبير هنا وخبير هناك ، على مؤلّف لهذا أو ذاك من مشاهير أساطين الطب العربى ، مما انتحله التاجر الجوّال من قرطاجة ، الذى ظن أنه قد ضمن لاسمه المجد والخلود .

لقد شق على الغرب دائما أن يعترف بالأحقية العربية فى الوضع والتأليف والابتكار ، وظل حتى عهد ليس ببعيد يبذل كل طاقاته لدفع ذلك وتفنيده .

الأصل العربى لشعر الغزل والعشق الفرنسى والألمانى

لقد شهدت العشرينات من هذا القرن هبوب عاصفة عاتية فى حقل علم الأدب استهدفت « كونراد بورداخ » وهو الضليع الحجة فى أدب العصور الوسطى ، خاصة فن الغزل ؛ وذلك لقوله بالأصل العربى لشعر الغزل والعشق الذى ساد الريف الفرنسى والبلاط الألمانى ؛ فجر على نفسه تلك العاصفة العاتية من النقد الساخط المعارض المُفند لما ذهبا إليه ، وكيف يرتضى الغرب أن يطوق عنقه الاعتراف للعرب بالذات دون سواهم بتلك المكرمة ؟ !

وإذا أخذت أولئك النقاد العزة ، راحوا يزعمون أن شعر الغزل القروسطى الذى نظمه الشعراء الجوالون فى أوروبا إنما كان امتدادا وتطويرا منبثقا عن التُراث الإغريقى - حيث صحا من غفوته - بل إن حِدّة ذلك الجدل استمر أوارها وامتد حتى إلى المناقشة العلنية لرسالة الدكتوراه التى تقدمت بها مؤلفة هذا الكتاب « حول تأثير الأنماط الغربية فى ضوء فن الغزل العربى والألمانى » ومن قبيل الصدف أن رسالة الدكتوراه هذه كانت من بين المراجع التى استند إليها العضو الذى تبنى الافتراض القائل بالأصل غير العربى مرجعا إياه إلى أوفيد ، بينما كان المشرف على الرسالة نفسه مستشرقا عُمدَةً ومرجعا رئيسيا فى ميدان الحضارة العربية والمعرفة بالعرب ، وقد صرّح المشرف بأنه مقتنع بصحة الأدلة والبراهين التى أكدت بها المؤلفة الأصل العربى لفن الغزل ...

ما المراد ؟ الانغلاق والتقوقع الذاتى أم الانفتاح والتضامن بين الشرق والغرب ؟

أخيرا بينت أزمة النفط فى خريف ١٩٧٣ للغرب عيانا حقيقة ارتباط العالم العربى بأوروبا ارتباطا مصيريًا ، وحاجة كل منهما للآخر ...

وفجأة بين عشية وضحاها تكشف للغرب مدى الجهل الفاضح ، والغرور البدائى الفادح ، اللذين تعودت أغلبية الأوروبيين الغربيين ، الذين يحسبون أنفسهم مُثقفين ، أن تنظر بهما إلى العرب من علياء ، باستهانة وإزدراء ، لا ترى فيهم سوى حفنة من رعاة الماعز ، وحُداة الإبل ... أما الأمكنة التى أمست فارغة فى مُخيّلاتهم فقد غدت تملؤها الآن الرسوم الساخرة (الكاريكتورية) لشيوخ النفط السمان ، وقد تحلت أصابعهم بالعديد من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ، وهم فى قصورهم الخرافية ينعمون ، يلهون بحريمهم ، وفى قسوة ظالمة يرفعون سعر النفط بجنون [(١)] ....

والحق غير هذا ، فإن نصيب العرب ـ قياسا إلى تكاليف الإنتاج التى تزايدت بصورة مُركزة ، وتبعا للضرائب الحكومية التى زادت ـ لم يرتفع إلا فى حدود متواضعة ...

ولم تفلح أية صُورة لأى عربى فى القضاء على التصوير الساخر المزدرى عن قصد وعمد لشيوخ البترول هؤلاء .

من ناحية أخرى تعايش الدوائر السياسية والاقتصادية فى قهرها للتعصب للمركزية الأوروبيّة ، وانفتاحها على مجريات الأحداث على الصعيد العالمى . فمنذ أزمة الستينات استيقظت الذّاكرة ، وراحت تتذكر علائق الود والصداقة القديمة التى ربطت بين الحكام الألمان والأمراء والقادة العرب ؛ ولم يحدث مطلقا أن أى رئيس لألمانيا الاتحادية أو أى ممثل للدولة قد أغفل فى كلمته فى أية مأدبة الثناء على الضيوف العرب الكرام ، مع الإشادة الشاكرة بفضل أجداد العرب وتقدير الألمان لما أخذوه عنهم من عطايا فكرية قيمة ، وذلك حين سطعت شمس الله على الغرب من خلال ما جاد العرب به ، بذلك القدر العظيم .

---

١ - كنت أسافر فى النصف الثانى من السبعينات والأول من الثمانينات إلى أوروبا سنوياً لأعمال تجارية ، ولم أكن أسمع أكثر من أن رفع ثمن البترول هو السبب فى ارتفاع أسعار أى شىء وكل شىء ! ثم انخفضت أسعار البترول ولم ينخفض سعر سلعة واحدة !

أجل ، إن الصداقة والعلاقات القلبية الطيبة تميز المعاملات بين ألمانيا والدول العربية ، على المستويات السياسية والدبلوماسية العليا .

عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار الذى جثم فوقها قرونا : من الترك العثمانيين إلى الأوروبيين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين ، حتى ألفت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث وما بلغ من شأو بعيد فى مجالات الصناعة والتكنولوجيا ، وأخذت تسلك سبلا مختلفة لكى تشق طريقها فى العالم الحديث ، لتفسح لنفسها مكانا فيه ، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضاراتهم الفتية ، وأن يحتذوا سير السادة اللاحقين وحياتهم الناجحة ، وطريقتهم فى العيش والتفكير ، وعاداتهم ، وما حققُوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية ، و هكذا يتأوربون كالأوروبيين ، ويتأمركون كالأمريكيين ، ويتروسون كالروس ؟

على أن ضد هذا الخطر الجديد ، الذى بات يتهدد الاستقلال الداخلى بعد التحرر خارجيا ، تداعت القوى - على اختلاف تجربتها فى المعاناة فى ماضيها مع الاستعمار وشدة اغترابها - وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدنية الحديثة الغربية .

إن تلك « الأصول » و « الجذور » التى ينبغى على العالم العربى أن « يجدها » ويتعهّدها حتى « يشق طريقه إلى أمام » قد ذكرتها فى كثير من محاضراتى فى المغرب العربى كله ، وهى :

١ - اللغة العربية : ففى الجزائر ، وعلى مدى مائة وثلاثين عاما ، كادت تمحى تحت سيطرة الفرنسية ؛ واللغة العربية بلا ريب هى المفتاح الرئيسى إلى عالم الفكر الذاتى للعرب ...

٢ - الدين بصفته المحور الذى يدور حوله وجودهم ، فى كل ما يتعلق بأمورهم ، ونعنى بذلك الإسلام النقى من العناصر غير الإسلامية ، المنفتح على العالم ، والذى لا يعارض التطور العقلى ؛ أو كما أوضح الفيلسوف محمد عزيز الحببى بالرباط : « إن المسلم يكون فى خدمة الله إذا ما كان فى عون أخيه ، فالعقيدة الإسلامية شهادة وعمل ، الشهادة لله ، والعمل التزاما بالسعى فى الدنيا - أى فى الله - الالتزام الكلى للإنسان ؛ فهو مسئول مسئولية تامة عن أفعاله » .

٣ ـ إن عودة الوعى والرجوع إلى الهوية الذاتية يتطلب :

ـ التنقيب عن الماضى الفكرى المدفون تحت الأنقاض تماما واستيعاب أسباب نشوئه ، واكتماله واكتهاله ، ثم تقهقره واندثاره . والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل ؛ فالعرب انطلقوا من قبل أيضا من البداية ، وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم ، فلم يترددوا فى الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضروريا لبقائهم ، دون أن يحاكوا محاكاة عمياء ، ثم واصلوا فوقه البناء بطريقتهم الخاصة ، وبالوسائل التى أتاحها لهم نبوغهم المميز ، وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم ، وهكذا غدوا أكفاء لخلق إبداع فكرى جديد ، قَيم من الدرجة الأولى ، منتم إليهم .

أما التوسل بأمجاد الماضى التليد فإنه لا يجدى فتيلا ، وإن التفاخر بالعصر الذهبى للتاريخ العربى لايجوز أن ينقلب إلى هروب من الواقع ، أو أن يكون اعتذاراً واهيا يكتفى المرء بالاتكاء عليه ، فيذكى بذلك كبرياءه فحسب ، دون أدائه الحق المفروض عليه ، وهو التعلم من الماضى لبناء المستقبل ، إذ إن المرء لا يستخلص الدروس والعبر من أسباب ازدهار الحضارة فقط ، بل من دواعى انهيارها كذلك ، وذلك ليتنكب الأخطار والمزالق ، التى أودت من قبل بذلك الازدهار ولا ريب أن ثمة خطرا فى التقوقع والانغلاق ، كما فى الغلو فى الانفتاح بلا قيد ولا شرط حتى الاغتراب .

إذن إن كل انحياز لجبهة واحدة خطر يتهدد الحياة ...

وبعد المرحلة الأولى التى أعقبت الاستقلال ، والتى إتسمت على جميع المستويات باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيدلوچية الروسية قدوة لها ، انتكست المسيرة ، وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل ، ورفضه ، خاصة ما أتى من « الغرب » ، وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه .

وباستمرار الحال على هذا المنوال ، يحل محل عدم التسامح والإجحاف سؤال :

إما الانغلاق والعزلة وإما الانفتاح

إما التقليـــد وإمـــا التجـديـد

ليس ثمة أجدى من السماحة فى العطاء والأخذ الواعى القائم على الأصالة ، المبنية على الرفض الصادر عن الثقة بالنفس ، المتغلغل فيها ، للعناصر الغريبة على الطبيعة العربية، والانفتاح للتطورات فى العالم الحديث ، لكى يتمكن العرب من الإحاطة بها والإفادة منها بما يتفق وروحهم الخلاق المبدع ، وأن ينفخوا فيها من روحهم فيبعثوها عربية حية ...

الفصل السادس

الصدمة النفسية « العربية » للغرب تنشط من جديد

إن الصدمة النفسية العربية المتغلغلة فى كيان الغرب ، والتى لم يشف منها فى مجموعها بوجه عام ، على امتداد ألف عام ، فيما عدا استثناءات بهيجة ، صارت اليوم تنصب على الأتراك ، ظلماً وإجحافاً ثائراً أرعن .

إن تجمعات الأتراك من العمال المهاجرين ، ضيوفا أو من طالبى اللجوء السياسى قد أثار رد فعل رافضا من قبل الدول المستضيفة :

ـ إنها تطلب من تلك الجماعات أن تتأقلم تماما مع شعوبها ، بأن تتدرج شيئا فشيئا فى اتخاذ لغات تلك البلاد وعاداتها وتقاليدها ، واحتذائها حذوها فى تنشئة أطفالها ، واستعمال لباسها والعيش مثلها ، إلى أن تذوب آخر الأمر ويتم اندماجها المتكامل مع الشعب المضيف ..

ـ وتلك سبيل لا يرضاها سوى نفر قليل من الأتراك .

ـ على العكس من ذلك يود معظم الأتراك أن يحافظوا على حضارتهم ودينهم بخصائصه المميزة بالصورة التى تمكنهم وذريتهم أيضا فى الدولة المضيفة ، من البقاء أوفياء لذواتهم ، ومن العيش كأنهم فى وطنهم ، بأن يمارسوا حياتهم : يعمرون مساجدهم المتواضعة ، يقومون فيها بالتدريس ، ويؤدون الصلاة ويلتقون فى ندوات وينتظرون من الشعب المضيف أن يتقبلهم بصفتهم أقلية دينية معترفا بها على قدم المساواة معه ، وحبذا لو كان ممكنا أن يسمح لهم بإنشاء حزب تركى ...

ـ على الضد من هذا نجد بين المواطنين فئة معارضة ترفض الغرباء أصلا ..

ـ تلك الفئة التى تريد أن تتقى الجدل الحزبى السياسى الآخذ عليها أنها عدو للغرباء ، بدل أن تهاجم الأتراك مباشرة تتستر باتخاذها الإسلام غرضا لسهامها بالطعن عليه ، وشن حملات دعاية مغرضة ضده توفر لها كل ما تكدس من أحكام بالية ظالمة ، فهو ممثل للأتراك ، ولا بد من شن حملة صليبية باتة ضد ذلك الدين العربى ، الذى كان ولا يزال حربيا غازيا ، وضد نبيه العربى محمد الذى دعا إلى استئصال الكفر بحد السيف والثبور ، وعظائم الأمور ، يجد المغرضون فى إذكائها ، لتلمع من جديد ، بعد أن كان يُظن خطأ أن الصدأ أبلاها .

ـ إن التضليل المتعمد ، الذى تسبب قديما فى الكيد والعداء للإسلام جاوز الحد إلى درجة تداعى الغرب « لأخذ الأهبة لدرء الخطر المحيق » وأصبح المرء يعتقد أنه فى نفس الوضع الذى ساد (كليرمونت) الفرنسية ، حيث دعا البابا أوربان الثانى إلى تسيير الحملة الصليبية وقتذاك ، إن الغرب مدعو اليوم لصد الخطر التركى المهدد ؛ فهو خطر « محيق بالغرب بواسطة التحريض العدوانى للغرباء المقيمين على أرضه » ، وضد أنشطتهم التى يمارسونها للتأثير على غير مؤمنى النصارى !!

ذلك على الرغم من إن أولئك ، لم يتعرضوا لأى أذى فى أرواحهم أو أجسادهم من قبل الأتراك ، فضلا عن أنه لم يحدث إطلاقا أن أحد المسلمين أبدى رغبته فى التبشير لكى يجعلهم يسلمون !!

إن الطبيب السعودى الدكتور نديم إلياس عضو رئاسة المركز الإسلامى فى آخن قد صرح بما يقطع الشك أن الإسلام لايعرف التبشير ، مستشهدا بالآية ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ ـ البقرة ٢٥٦ ـ وأن الإسلام لا يسمح بأن يضار أحد ماديا أو معنويا أو أن يكره على ذلك ، ولقد أكد الدكتور نديم إلياس أن مسئولية كل مسلم تنحصر هنا فى تمثيل الإسلام قولا وعملا ، حتى يكون الإسلام من خلاله واقعا ملموسا ، والدفاع عنه بتفنيد الأحكام الخاطئة الظالمة التى يرمى بها ، حتى تزول ، وفى هذا تتمثل الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

وإذا كنا اليوم ـ بالنظر إلى النداء إلى شن « تلك الحملة الصليبية » ـ من جهة أخرى فى كليرمونت الفرنسية نستبدل الترك بالعرب ، ونصمهم بأنهم حزب الشيطان

المعتدون ، ونسلط عليهم الأضواء لكى يظهروا فى هذه الصورة ، فإن الوقت يكون قد حان أخيرًا لنطرح عنا غرورنا ، وكبرياءنا الزائفة ، وأن نحطم ذلك السد الحائل المخزى الذى أقامته الصدمة النفسية المُتغلغلة فينا ، نتيجة الفخر الكاذب والإجحاف الظالم ، بعد تسعمائة عام من ذلك النداء البابوى الوخيم المشئوم إلى النصارى « شعب الله المختار » !

إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا ، نقولها بلا تحيز ، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلطخه بالسواد ، إذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة فى حقه ، والجهل البحت به ؛ وإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق ، مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو .

فهـــرست

رقم الإيداع : ٥٩٤٤/ ٩٥
I.S.B.N. : 09 - 0297 - 7

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

زيجريد هونكه

ولدت فى ٢٦ أبريل (نيسان) عام ١٩١٣ بمدينة كيل بألمانيا لأب ليس غريبا عن عالم الكتب هو هاينرس هونكه ، ولأم هى السيدة هيلد جاردلاو ، والسيدة زيجرد أم أنجبت أستاذة جامعية وطبيبة وعالمة ، من زوجها الكريم ، الذى تزوجته فى عام ١٩٤٢ . والمؤلفة ذائعة الصيت ، فهى كاتبة ترجمت كتبها إلى لغات كثيرة ، ومن بينها كتاب «شمس الله تسطع على الغرب » الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ ، سفر قيم ، يشيد بالفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة ، وسبق أن ترجم إلى اللغة العربية تحت إسم « شمس العرب تشرق على الغرب » . وهى مؤرخة باحثة فى ميدان فلسفة الحضارة ، والرئيسة الشرفية لكثير من الهيئات العالمية فى هذا المضمار ، وعضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة منذ ١٩٧٣ ، وقد حصلت على جوائز وأوسمة ، منها جائزة وسام الفيلسوف « كانت » ١٩٨١ ، وجائزة الشاعر « شيللر » للألمان عام ١٩٨٥ ، ووسام الاستحقاق والتقدير المصرى من الطبقة الرفيعة فى العلوم والفنون عام ١٩٨٨ .

درست المؤلفة الفلسفة ، وعلم النفس الجمعى للشعوب ، وعلم الأديان المقارن ، واللغة الألمانية وآدابها ، والتاريخ القروسطى ، وتخرجت فى جامعات كيل ، وفرايبورج ، وبرلين ، ونالت درجة الدكتوراة عام ١٩٤٠ ، وسعيا لتأكيد فكرها الرائد المؤكد لفضل الشرق على الغرب أسست عام ١٩٧٣ رابطة تحمل إسمها ، وهى الرئيسة الفخرية لها .

يتصدى « الله ليس كذلك » علميًا وموضوعيًا لما يلصقه الغرب ظلمًا وعدوانا ، أو جهلا ، بالعرب وبالإسلام ، ويحررهم من قبضة الفئة التى زيفت التاريخ . إن هذا الكتاب ليس صرخة فى واد ، وإن صدوره فى هذه الفترة العصيبة التى تشهد ضراوة العدوان على أرواح المسلمين وممتلكاتهم وحرياتهم ، فى أوطانهم وفى غير أوطانهم ، وفى مناطق مختلفة من أوروبا ، إنما هو دفاع تعلنه المؤلفة جهارًا ، لعلها تسمع من « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا » .